كتابي

عدد ممتاز
١٢ قرشا

"المرأة ذات الوشاح"
("ملاءة لف" .. من ستوكهلم!)
لوحة للفنان السويدي "روسلين"



حلمي مراد

كتابي يبدأ عامه الثامن

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

اطلب مع هذا العدد هديته المنفصلة :

اقرأ معى

مجلة ثقافية مصورة

فى ٣٢ صفحة من القطع الكبير

الكتاب الرابع والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والاعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثلاثة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد ، فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها سبعة وأربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى اليمن ومصر والسودان والحجاز وسوريا والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

عزيزى القارئ ..

• **بعد** فراق طال أكثر مما قدرت ـ لاسباب سأحدثك عنها توا ـ نلتقى اليوم على أشواق .. وآمال ، وان خالطها من جانبى قدر من « عدم الرضا » عن هذا العدد ، الذى يقصر عما كنت أطمح الى أن يكون عليه ، من ناحية الطباعة بالذات .. واليك القصة ، بتفاصيلها :

على أثر اصدارى العدد السابق من كتابى ، (رقم ٨٣) ، والجزء الاول من « القلعة » ، ألقيت بنفسى فى معمعة التفرغ لاصدار الترجمة الكاملة لقصة باسترناك الطويلة المشهورة « دكتور جيفاجو » ، التى استغرقت منى مجهودا فاق ما قدرت من قبل .. مجهودا حال بينى وبين ان أجد ساعة واحدة أفكر فيها فى شىء آخر !

فلما صدر الجزء الاول من « دكتور جيفاجو » ـ الذى لقى من اقبالك ما لايزال حديث الناس والمحافل الادبية والصحفية ـ وقدرت أن الجزء الثانى والاخير من القصة سوف يستغرق منى نفس المجهود ، ونفس الانقطاع ، استكثرت أن يطول الامد بين عدد كتابى السابق والاعداد اللاحقة .. وبين الجزء الاول من «القلعة» والجزءين الباقيين منها .. فرأيت أن أقسم وقتى بين الاهداف الثلاثة بالتساوى :

كتابى ، والقلعة ، وجيفاجو . وكانت « القلعة » أقلها احتياجا الى المجهود غير العادى ، فآثرت ان أفرغ منها أولا — لاطرحها وراء ظهرى — ثم أتفرغ للهدفين الباقيين ، المحتاجين الى مجهود مضاعف : جيفاجو ، بحكم ضخامته وضخامة المجهود الذى تتطلبه ترجمته ، ومراجعته ، وتحقيقه ، واخراجه .. ثم « كتابى » الجديد هذا ، بحكم حرصى على ان أطفر به طفرة تقترب به خطوات من المستوى الذى أنشده له .

وبالفعل ، عكفت على اصدار الجزء الثانى من القلعة ، ثم الجزء الثالث والاخير منها .. فلما فرغت منهما ، واجهت المرحلة التالية من الطريق بمجهود موزع ، نصفه لجيفاجو — الذى هو الآن رهن المراجعة ثم الطبع — ونصفه لهذا العدد من كتابى ، والاعداد التالية له باذن الله .

وحين شرعت فى اعداد العدة لهذا العدد ، وللملحق الجديد المنفصل الذى أضفته اليه كما ترى ، كان لابد لى من أن أضع نصب عينى تحقيق هدفين ، فى وقت واحد :

أولهما النهوض به من حيث الطباعة ، كما أعلنت على صفحات العدد السابق منه (٨٣) ..

والهدف الثانى رسم خطوط مشروع الملحق الجديد ، ودراسة تفصيلاته ، وحجمه ، والتفكير فى العشرات من الابواب الجديدة التى رشحتها له .. ثم تخصيص جانب كبير من وقتى لحصر المراجع التى اعددتها لهذه الابواب ، ومطالعة كل مايخطر على البال من أشتاتها .. ثم اختيار أفضل المواد

التى انتهى اليها بحثى ، وترجمتها ، وغربلتها ، واعداد مايكفى منها لعدة أعداد قادمة ، قبل اصدار العدد الاول .. الخ .

والى جانب هذا كله ، كان على أن أنتقى لكتابى نفسه — علاوة على ملحقه — زادا كبيرا من المواد الممتازة ، لعدة أعداد قادمة .. ولا سبيل الى ذلك بغير مطالعة العشرات من الكتب الجديدة التى جمعتها خلال جولتى الاخيرة فى أوربا ، استعدادا لهذه الطفرة .. وبعد المطالعة يأتى دور الاختيار والتفضيل ، والارجاء أو التعجيل ببعضها دون البعض الآخر .. ثم تلخيص ما يتسع له وقتى منها ، والاشراف على تلخيص غيرها بمعاونة زملائى الاعزاء من أفاضل المترجمين ..

وبعد الترجمة والتلخيص يأتى دور المراجعة والاعداد ، والاختصار أو الاضافة حسب مقتضى الحال وأهمية الموضوع ، ومقدار الحيز المخصص له .. ثم يتبع ذلك تنقيح الملخصات بغية تحقيق التوازن بين مختلف الاساليب ، ولكل مترجم أسلوبه الخاص بطبيعة الحال .. ثم تأتى بعد ذلك مرحلة اختيار أفكار رسوم كل موضوع ، وتنفيذها ، وتعديلها عند اللزوم .. الخ

فاذا فرغنا من ذلك كله ، بدأت مرحلة ارسال المواد للمطبعة لجمع حروفها ثم تصحيحها ومراجعتها — عشرات المرات — لتنقيتها من شوائب الاخطاء التى .. يشيب لها الولدان !

وهذا يقودنى الى الحديث عن « طباعة » الكتاب والنهوض بها ، وهو الهدف الذى أشرت اليه فى بداية هذه السطور ، وما زلت — للأسف البالغ — عاجزا عن الوصول اليه .. بل

الهدف الذى أرقنى طوال الاسابيع الماضية ، وما يزال يؤرقنى حتى كتابة هذه السطور ..

وأعترف ان « مشكلة » الطباعة كان لها نصيب كبير — الى جانب العوامل السابق ذكرها — فى تأخير صدور هذا العدد حتى اليوم ! .. ذلك اننى كنت مصمما على ارجاء اصداره الى أن تصل قوالب الحروف الجديدة لماكينة « الانترتيب » التى تجمع بواسطتها سطور الكتاب . وكانت القوالب الحالية قد احترقت نسبة كبيرة منها منذ شهور ، فسعيت — وما زلت أسعى — لدى توكيل شركة « الانترتيب » بالقاهرة — « جون ديكنسون وشركاه » — لاستيراد « طاقم » جديد كامل منها ، من مصانع الشركة بانجلترا .. ولكن هذا « المدد » لم يصل حتى اليوم !

وأخيرا ، وتحت تأثير الحاحك أنت أيها القارىء ، وقلقك ، وتساؤلك عن أسباب التأخير — كما تمثل ذلك كله فى مئات الرسائل والاستفسارات التليفونية التى تلقيتها منك طوال الاسابيع الاخيرة — اضطررت للرضوخ لارادتك والعدول عن تصميمى السابق على عدم طبع هذا العدد الا بعد وصول قوالب الحروف الجديدة .. لكن هذه الاستجابة لرغبتك أشقتنى بقدر ما أسعدتنى : فهى قد اسعدتنى فى أول الامر لانها دلتنى على مبلغ تعلقك بكتابى ، ولهفتك على لقائه .. لكنها أشقتنى بعد ذلك ، وما تزال تشقينى ، كلما تصفحت ملازم هذا العدد فوجدتها على هذه الصورة من التشويه والتآكل فى بعض الحروف ، مما يجعلنى أحس كأن التآكل

انما ينشب أظافره فى أعصابى ! .. ولا يخفف من الى الا أملى فى أن تصل النجدة فى القريب العاجل ، فيزول هذا العيب الذى ينتقص من أناقة الكتاب ، بل من راحة العين أثناء القراءة ..

بقى أن اقدم لك الملحق الثقافى المصور ، بل المجلة المنفصلة التى ستحصل عليها مع كل عدد ، ابتداء من هذا الشهر .. لكنى أوثر أن يكون حديثى لك عن اهدافها ، فى صدر عددها الاول الذى وزع عليك مع هذا العدد .. وأرجو ان اتلقى رأيك الصريح بشأنها وشأن كتابى فى عهده الجديد .. مالهما وما عليهما !

والآن ، دعنا نواصل جولتنا معا فى ربوع هذا العالم الصغير الذى كادت تنعدم بين أطرافه عوائق المسافة والزمن . فأحدثك فى هذه المرة عما رأيت وسمعت فى البلد العربى الصديق : (المغرب) ، لمناسبة الدورة التى تعقدها الجامعة العربية هذا الاسبوع فى (الدار البيضاء) .

والله ولى التوفيق .

حلمى مراد

رأيت وسمعت لك .. فى (المغرب)

من (طنجة) الى (الدار البيضاء) .. وبالعكس !

• **مطار** (مدريد) .. الساعة الثالثة بعد ظهر الجمعة ٢ يناير .. وقد تأخرت الطائرة ، فوقفت أتحدث مع الدكتور العبادى ـ الذى كان فى طريقه الى حيث انتدب للتدريس فى جامعة (الرباط) ـ وكان فى وداعنا الصديق الدكتور حسين

مؤنس ، مدير المعهد الاسلامى فى العاصمة الاسبانية . ولم ننتظر الانتظار ، فقد كانت الشمس مشرقة والطقس دافئا، نسبيا، فاستمرأته بعد البرد الرهيب الذى قاسيت منه فى (ميونيخ) منذ أسبوع ، وفى (جنيف) منذ يومين فقط ..

وبعد نحو نصف ساعة وصلت الطائرة . طائرة صغيرة، ذات محركين فقط ! ونظر الدكتور العبادى الى ، ونظرت اليه ، وابتسمنا .. فى وقت واحد !

وبعد نحو ساعتين كانت الطائرة تحلق بنا فوق صخرة (جبل طارق) . وكان منظرا رائعا .. فالمسافة جد قصيرة بين الشاطىء الاسبانى والشاطىء



جلالة الملك محمد الخامس يحيى علم المغرب ، فى احدى المناسبات الرسمية .

المغربى .. بين اوربا وافريقيا ! .. ولكن برغم قصر المسافة فالمفارقة صارخة بين البلد الذى غادرناه منذ برهة والبلد الذى هبطنا فيه الآن .. بين المطار المزدحم الذى يعج بالناس وبمختلف الرطانات الاجنبية ، كخلية النحل ، وبين المطار الهادىء الذى يطالعك على بابه بضعة حمالين يرتدون السراويل الواسعة المنتفخة التى اشتهر بها المغاربة منذ قديم الزمن .. ويتكلمون خليطا من العربية والفرنسية ، بسرعة مذهلة !

وفى الخارج كانت أشجار النخيل ، ذات العطر الافريقى ، تمحو ذكريات ثلوج الالب ، وتصرخ فى وعيك الحالم : استيقظ أيها الوافد الغريب ، انك قد عبرت من قارة الى قارة !

ولفظتنا عربة شركة الطيران أمام مكتب الشركة ، فتركت متاعى فيه وانطلقت أقوم بجولتى الاولى فى هذه الميناءالعجيبة .. التى تغسل قدما فى البحر الابيض وتكاد تمد الاخرى نحو مياه الاطلنطى ! .. ولم اكد أعبر الشارع حتى وجدتنى أطل على الخليج الدائرى الساحر ، الذى ذكرنى بخليج نابولى — مع فارق الصغر والكبر طبعا — ولكن ، رغم هذا الفارق ، فان هذا المخفر الافريقى الامامى قد شهد عددا من أخطر أحداث التاريخ ، وألهم الشعراء الكثير من القصص والاساطير ، وفى مقدمتها الاسطورةالتى رددها الشاعر الخالد «هوميروس»!

تقول الاسطورة أن الاله «أنتيوس» ، ابن «نبتيون» اله البحر ، هو الذى أسس المدينة ، وأطلق عليها اسم زوجته «تينجو» ثم جاء « هرقل » فقتل أنتيوس . وتزعم الاسطورة أن جسد

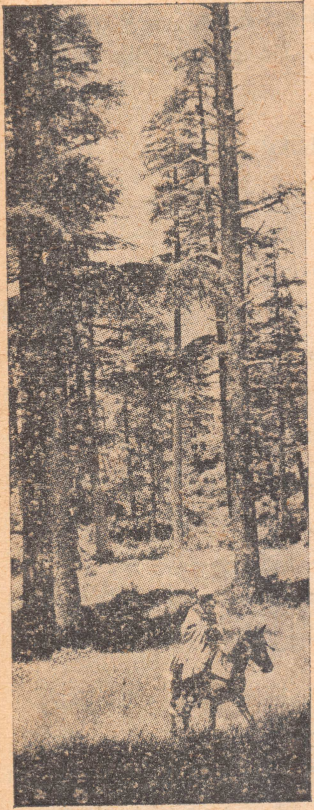


فتاة مراكشية عصرية

العملاق المهزوم يرقد تحت قدمى « أعمدة هرقل » المقامة هناك !

صفحة شائقة ..
من التاريخ

• **وتاريخ** (طنجة) يرجع الى ما قبل ١٦٠٠ عام، حين لاذت بها قبائل انحدرت من الشمال هربا من صقيعه الشديد. ثم تعاقبت عليها غزوات البرابرة .. وفى عهد الفينيقيين كانت من أقوى مدنهم الرئيسية. فلما انهارت (قرطاجنة)، سقطت طنجة غنيمة سهلة فى قبضة روما، فأرسل اليها يوليوس قيصر و «بومبيى» جيوشهما. وجاء أوكتافيوس فخلع عليها صفة المدينة الحرة. وأعقبه (كلوديوس) الذى أعفاها من جباية الضرائب



غابة الأرز في بلاد المغرب

.. ثم ظلت طوال اربعمائة سنة عاصمة لولاية (موريتانيا تنجيتانا) .. لكن عصر السلام والحضارة الذى عرفته تحت حكم الرومان لم تلبث أن بددته - في القرن الخامس - غارات (الفندال) وغيرهم من سادة اسبانيا فى ذلك العصر . وفى عهد الامبراطور « جستنيان » غزا البيزنطيون المدينة ، لكن حكمهم لم يدم أكثر من نصف قرن ! على ان طنجة « البيضاء » ، بحضارتها الزاهرة ، وترفها - كمرفأ تجارى - وآثارها وتراثها ، ظلت تراود أحلام العرب .. حتى دخلها « عقبة بن نافع » فى عام ٦٨٢ . **ومنذ ذلك التاريخ تطورت بسرعة الى قاعدة**

بحرية لم تلبث أن انطلقت منها سفن العرب بأشرعتها الحمراء ، حاملة الرجال والعتاد عند اجتياحهم لاوربا ، الذى استمر عدة قرون !

على ان الخلافات الداخلية بين سلالات المغاربة عادت فمهدت الطريق للغزو البرتغالى (عام ١٤٣٧) . ثم آلت المدينة ــ نتيجة تزاوج بين الملوك ــ الى يد فيليب الثانى ملك أسبانيا (عام ١٥٧٦) .. وعندما تزوجت الاميرة « كاترين البرجندية » من « شارل الثانى » ملك انجلترا ، انتقلت (طنجة) الى التاج البريطانى ، كمهر أو « دوطة » للزواج ! (عام ١٦٦١)

لكن الانجليز تبينوا ان الاحتفاظ بها يكلفهم غاليا ــ بسبب الخسائر الفادحة التى كبدتهم اياها قوات « مولاى اسماعيل » أثناء حصارها للمدينة ــ فقرروا التخلى عنها ، (عام ١٦٨٤) لكن انانيتهم « الشمشونية » أغرتهم بألا يتركوها الا حطاما ، فنسفوا الميناء ، بجميع تحصيناته ، تاركين وراءهم دخانا يتصاعد من الخرائب التى كانت يوما مركزا للتجارة والثراء !

ومنذ ذلك الحين ، صارت طنجة جزءا من المغرب .. ولكن الاحداث لم تكف عن ان تتعاقب عليها : فهاجمها الاسطول الاسبانى بكل قوته (عام ١٧٩٠) .. ثم الاسطول الفرنسى فى عنفوانه (عام ١٨٤٤) .. وشيئا فشيئا ، قرب نهاية القرن التاسع عشر ، غدت طنجة مركزا لمؤامرات التدخل الاوربى فى شئون المغرب ! .. وظلت نحو قرن كامل بمثابة العاصمة



الراقصون والعازفات على الدفوف وقد اجتمعوا في مدينة (مكناس) لاحياء مولد (مولاى ادريس)

الدبلوماسية للبلاد ، ثم وضعت تحت ادارة دولية تشترك فيها ثمانى دول . وخلال تلك الحقبة كانت التجارة فيها حرة لا تخضع لقيود ولا جمارك ، (كما هى الحال فى هونج كونج الآن) ، فكانت تستورد كل بضائع العالم وتصدرها دون أدنى قيد ولا شرط !

فلما حصلت بلاد المغرب الشقيقة على استقلالها الكامل ووحدة أراضيها (عام ١٩٥٦) ، انتهى عهد الادارة الدولية لطنجة ، وصارت منذ ذلك التاريخ جزءا من الوطن المغربى .

على ان المدينة ماتزال محتفظة بتفوقها التجارى ، والحرية النسبية للتجارة فيها ، أكثر من جميع بلاد المغرب الكبرى (كالرباط والدار البيضاء) ، فقد رأيت متاجرها مزدحمة بأحدث البضائع المستوردة من شتى دول العالم المصدرة ، وان كانت أسعارها فقدت رخصها الذى كانت تنافس فيه (هونج كونج) ، وصارت وسطا بين الاسعار القديمة والاسعار الاكثر ارتفاعا فى بقية مدن المغرب .

المدينة الجديدة .. قطعة من أوربا !

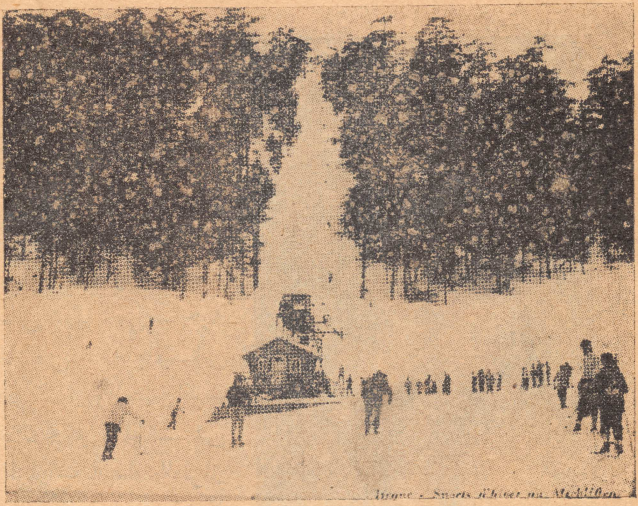
• **وتنقسم** طنجة الى مدينتين ، تفرق بينهما المفارقة الصارخة ، فى كل شىء ! (شأنها فى ذلك شأن ستوكهولم ، وجنيف ، اللتين ينقلك فيهما السير بضعة أمتار ، من المدينة الحديثة البالغة الرواء ، الى الاحياء التاريخية القديمة ذات السحر الخاص ، والغموض الجذاب ، والتذكارات التى ترجع



احدى راقصات « الباليه » فى طنجة .

الى القهقرى مئات السنين !)

فأما طنجة الحديثة ـ التى تتفرع من « ميدان فرنسا » ، وشارع « باستور » ، و « محمد الخامس » ـ فهى ضاحية جميلة مزدحمة بالمبانى الفاخرة ، والحوانيت الانيقة ، والمقاهى و « البارات » ذات الطراز الفرنسى الجميل ، فضلا عن عشرات البنوك الكبيرة والصغيرة التى لا تقع تحت حصر (فان تداول العملة ما يزال حرا فى طنجة) . وقد يدهشك أن تجد فى هذه المدينة الصغيرة مدرسة كبرى لفن « الباليه » ، ومعهدا للموسيقى (كونسرفاتوار)، وساحات للجولف ، وحلبات لمصارعة الثيران ، وسباق



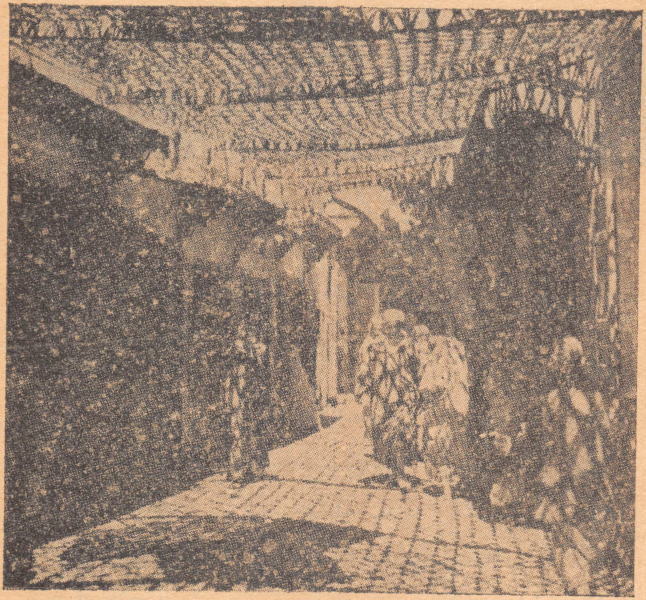
رياضة الشتاء (التزحلق على الجليد) ، فى أحد الأماكن المرتفعة بالمغرب .

السيارات ، والفروسية ، والبولو ، وحمامات للسباحة ، ونا ديا لليخوت والزوارق .. الخ

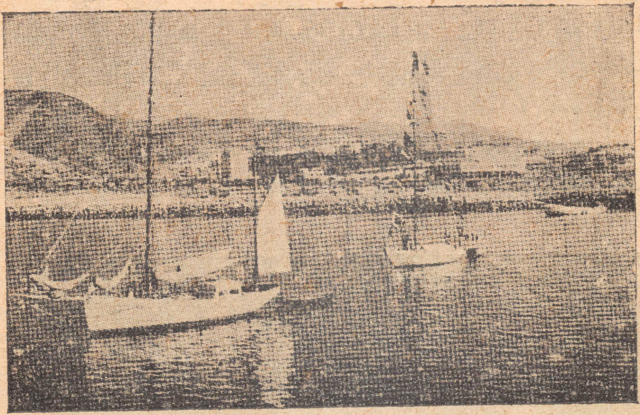
واذا وقفت فوق أحد التلال السبعة التى شيدت عليها المدينة (وارتفاعها عن سطح البحر نحو سبعين مترا) ، وكان الطقس صافيا ، استطعت أن ترى منه ــ بالعين المجردة ــ البيوت البيضاء الصغيرة على سفح صخرة جبل طارق المواجهة لها ، عبر المضيق !

أما طقس المدينة (وهى تقع على خط عرض ٣٩ ، وخط طول ٩) فهو معتدل ، صيفا وشتاء . ورغم تطرفها فى أقصى نتوء من القارة ، بين البحر الابيض والاطلنطى ، فان الضباب المنخفض أو ((الشبورة)) منعدمة فيها تماما ، بفضل الرياح القوية التى تهب عليها من الشرق ، ولكن فى غير عنف .

ومن أطرف الاحصاءات التى وقفت عليها هناك بشأن



السوق المسقوفة في مدينة (فاس) .



الزوارق الشراعية فى مياه (أجادير)

طقس المدينة ، الاحصاء التالى المبنى على متوسط احصاءات ١٥ عاما ، ويؤخذ منه أن :

عدد الايام الممطرة فى السنة	٧٧	يوما
« « التى تشرق فيها الشمس	١٢٥	«
« « التى تخيم فيها السحب	٦٨	«
« « التى تتناوب فيها السحب والشمس	٩٥	«

ترى هل عندنا مثل هذا الاحصاء عن بلادنا ؟

و « بلاج » طنجة يعتبره البعض ثالث شواطىء الاستحمام فى العالم من حيث جماله والمتع التى يتيحها لرواده .. فان



امرأة مراكشية من الريف تعد الشاي .

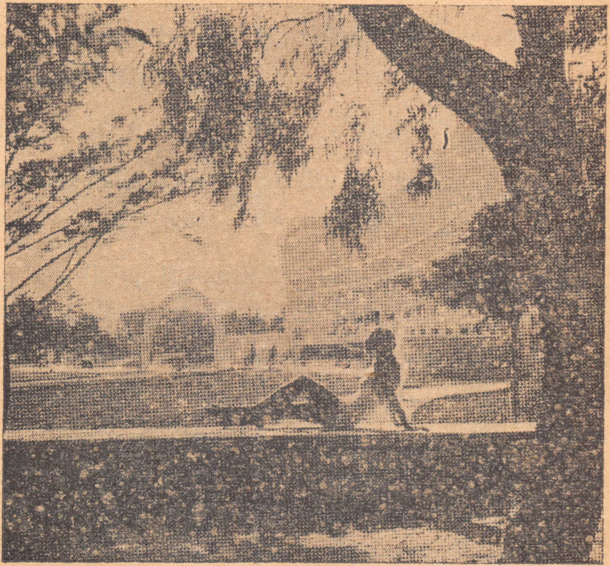
رماله الذهبية الساطعة ترقد عند أقدام الخليج الدائرى الجميل ، لتغتسل فى بحر من الماء والضياء .. وأمامها ينفسح الافق الرائع الذى يبدو وكأنه يضع الشاطىء الاسبانى المواجه ، فى متناول يدك !

وفى أقصى الشاطىء ، ناد لصيد الحمام ، وأرض للرماية ، وقاعة للرقص ، وشاطىء خاص ، وبار ، ومطعم ، ومرفأ صغير لليخوت ، لاعضاء النادى وزائريه .. وفى كل صيف وخريف تقام فى طنجة مباريات رياضية دولية ، من كل نوع .. كما يقام مهرجان ثقافى تستمتع فيه المدينة ببرامج من أشهر جوقات الموسيقى العالمية ، وأبرع الفرق الراقصة ، وأقدر المحاضرين فى الادب والفن .. الى جانب المعارض الفنية والفرق المسرحية على اختلاف ألوانها . وفى الخريف يقام أسبوع للفولكلور ، تعرض فيه نماذج مختلطة لا حصر لها من الفنون الشعبية فى الرقص والموسيقى ، المغربية والاوربية على السواء !

وفى طنجة عدد كبير من الفنادق السياحية لجميع الطبقات ، ومن مختلف المستويات ، بحيث يتراوح أجر الغرفة ذات السرير الواحد فيها بين نصف جنيه ، وثلاثة جنيهات . وأشهر فنادق الدرجة الاولى فيها فندق « فيلاسكويز » وفندق « رمبرانت » (وكلاهما سمى باسم أحد أساطين الفن العالميين !) ، ثم فندق (مينزا) وهو على الطراز المغربى الجميل ،

الانتقال عبر عشرة قرون .. فى ١٠ دقائق !

• **واذا** جاوزت فندق (مينزا) ، قادما من شارع (باستور) ـ قلب المدينة الحديثة ـ ألفيت نفسك تقترب من المدينة القديمة .. فاذا الشوارع تضيق شيئا فشيئا ، حتى تجد نفسك فى حوار لا يزيد عرض بعضها على مترين أو



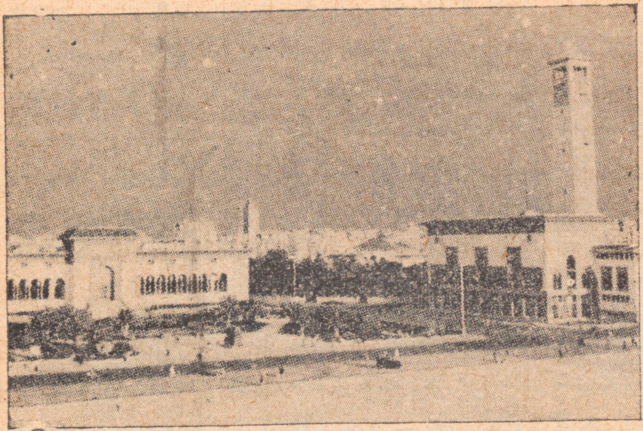
احدى السائحات فوق سور حمام السباحة الفاخر بأحد فنادق (المغرب) الكبرى .

متر ونصف ، وعلى جانبيها صفوف لا نهاية لها من الحوانيت الصغيرة التى تعرض كل ما يخطر بالبال من السلع ، ولا سيما السلع القومية التقليدية ، كالسجاجيد الصوفية ، والاوانى النحاسية ، والشمعدانات ، والصوانى ، والوسائد والحقائب المطرزة بخيوط الذهب والفضة .. الخ

والمدينة القديمة ــ ويطلقون عليها (كاسبا) ، غنية بالبوابات الاثرية ، والمساجد التاريخية ، والاسوار ذات الماضى العريق .. وفيها عدد كبير من المكتبات المتخصصة فى بيع الكتب القديمة والمحفوظات ..

والمفارقة بين المدينتين ــ القديمة والحديثة ــ فى طنجة ، من المفارقات الصارخة التى تنقلك من النقيض الى النقيض نقلا مفاجئا .. بل تنقلك عشرة قرون الى الوراء ، فى دقائق !

ومن أمتع المناظر التقليدية التى يحرص السياح على رؤيتها فى طنجة ، منطقة الميناء .. حيث ينتشر الحمالون العمالقة بسراويلهم المنتفخة ، وستراتهم ذات الالوان الزاهية ، الخضراء والصفراء والحمراء .. وهم يتشاجرون فيما بينهم بأصوات عالية . وقد حدثنى أحد المشرفين على السياحة فى المدينة فقال ، ان من يرى هؤلاء الحمالين تعود الى خياله صور أجدادهم من البرابرة قراصنة البحار ، ولكن ينبغى ألا يخشى المرء شرهم ، لان نفوسهم تنطوى فى الواقع على الطيبة والود ، كما انهم أكثر الناس أمانة فى العالم ، فأنت تستطيع أن تعهد اليهم بثروة ، دون ان تخشى ان يمدوا اليها يدا !



دار البلدية فى (الدار البيضاء)

.. ثم يضيف محدثى - تدليلا على أمانة هؤلاء الحمالين ، وذكائهم - انه لم يحدث قط أن فقدت أية حقيبة من الامتعة ، أو حتى طرد صغير ، مهما يكن اهمال صاحبه أو استهتاره وعدم مبالاته ! .. فضلا عما اشتهر به هؤلاء القوم من سرعة وحسن تصرف ، فأنت لا تكاد تعبر رصيف الميناء حتى تجد متاعك فى انتظارك عند باب الخروج ، فى حراسة حمال ذكى خبير بانجاز كافة الاجراءات الجمركية فى مثل لمح البصر !

كورنيش جميل .. على شاطىء الاطلنطى

• **والآن** ، تعال نغادر طنجة بطريق البر فى طريقنا الى (الرباط) - العاصمة الرسمية للمغرب - ومنها الى (الدار

البيضاء) ، العاصمة التجارية والفعلية للبلاد .

والطريق المذكور ــ الذى تقطعه السيارة فى ساعات ــ يمتاز بجماله وروعة المناظر الطبيعية التى يمر بها ، ولا سيما فى المرحلة من الرباط الى الدار البيضاء ، فهو آنا يمر بمحاذاة المحيط ، أى شاطىء افريقيا الغربى ــ المواجه لامريكا ــ وآونة يمر بين الغابات والصخور المكسوة بالخضرة الرائعة ، ويسميه المغاربة « ريفييرا افريقيا » ..

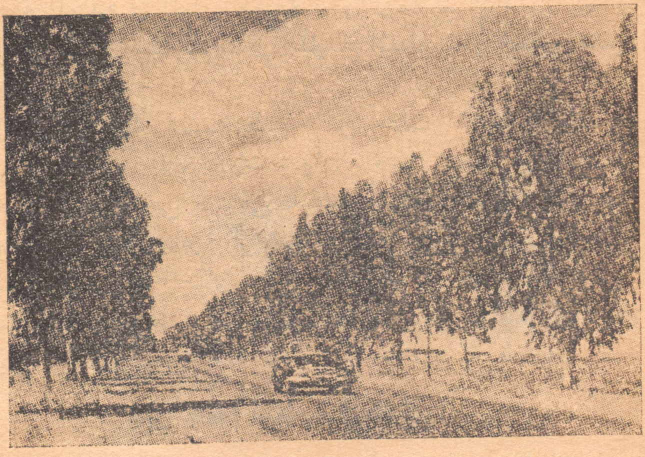
فاذا بلغنا **(الرباط)** ، ألفيناها مدينة مستوية تماما ــ على العكس من (طنجة) ذات المرتفعات والمنخفضات والخلجان والمناظر المنوعة .. ذلك أن الرباط أنشئت حديثا لتكون عاصمة البلاد ، فخططت ــ على أرض صحراوية ــ الى شوارع عريضة متوازية ومتقاطعة ، وزرعت على جانبى شوارعها الرئيسية أشجار النخيل لتحمى المارة من الشمس . ولنترك الحديث عن (الرباط) الآن ــ مرجئينه ، مع الحديث عن بقية مدن المغرب الرئيسية ، الى مناسبة أخرى ــ كى نواصل سفرنا بالسيارة الى (الدار البيضاء) ، عروس المغرب الكبرى التى يعقد فيها بعد أيام الاجتماع العربى المرموق .

يتزايدون ثلاثين ضعفا .. فى نصف قرن !

• **والدار البيضاء** هى ، كما أسلفت ، العاصمة التجارية والصناعية للبلاد . وهى تستمد اسمها الاجنبى ، (كازابلانكا) ، من الترجمة الاسبانية لكلمتى الدار البيضاء ــ فكلمة « كازا » تعنى « الدار » ، و « بلانكا » تعنى « البيضاء » . وتاريخ

نشأة المدينة يحوط به الغموض الى حد كبير ، فهو ليس معروفا أو محدودا بالتفصيل مثل تاريخ (طنجة) العريق مثلا . ولكن مما يعرف منه على سبيل المثال أنه فى عام ١٧٥٥ اجتاحت المنطقة موجة المد الخطيرة التى عصفت بشاطىء الاطلنطى فأحدثت به أضرارا جسيمة .

وقد يدهشك أن تقف على مبلغ السرعة الفائقة التى تضخمت بها (الدار البيضاء) واتسع فيها العمران : ففى عام ١٩٠٧ - أى منذ نصف قرن فقط - كان تعداد سكانها ٢٥ ألفا فقط ، كانوا يعيشون فى منطقة منها تعرف اليوم باسم (المدينة القديمة) .. أما اليوم فقد اتسعت رقعة المدينة



الطريق الموصل بين (الربـاط)و (كازابلانكا) ، بمحاذاة المحيط الاطلنطى .

بحيث صارت تساوى ـ فى المساحة ـ (باريس) عاصمة فرنسا ! .. وان يكن تعداد السكان لم يتضاعف بنفس النسبة ، اذ يبلغ اليوم نحو ثلاثة أرباع المليون ، فقط ! .. ولكنه على أية حال زاد عما كان نحو ثلاثين ضعفا ، فى خمسين سنة !

وميناء (الدار البيضاء) يعتبر اليوم من أضخم موانىء افريقيا ، رغم أن طبيعة الشاطىء كانت أبعد ما تكون عن الصلاحية للملاحة ، ولذا فان تضخمه الى هذا الحد ينطوى فى ذاته على جرأة هندسية منقطعة النظير . وما يزال الاتساع فى الميناء ماضيا فى طريقه ، بحيث ينتظر أن يبلغ طول الارصفة الممتدة فى المياه العميقة نحو أربعة أميال ! .. كما ينتظر أن تصل مساحة مخازن الميناء المغطاة نحو ثمانية عشر فدانا !

والدار البيضاء تشبه طنجة من حيث طبيعة أرضها الكثيرة المرتفعات والمنخفضات ، وان فاقتها أضعافا فى الاتساع والعمران . وبها حى صناعى تذهلك ضخامته . أما عماراتها الحديثة فيصل ارتفاعها الى ثمانية عشر طابقا ، مشيدة على أحدث طراز فى فن المعمار . وفى قلب المدينة تجد « رئة » من الخضرة الفسيحة تعتبر متنفسا رائعا لها ، هى متنزه «ليوتى» الجميل ، الذى تتفرع منه عدة شوارع عصرية فسيحة .

ثانى حمام سباحة فى العالم !

• **وشاطىء البحر** فى (الدار البيضاء) مستغل أحسن استغلال، ففيه ثانى حمام سباحة فى العالم من حيث الاتساع ،



عمارات (الدار البيضاء) الحديثة الشاهقة ، كما ترى من الجو .

وهو يملأ بماء البحر وليس بالماء العذب ! .. وعلاوة على هذا تجد فى أماكن مختلفة من الشاطىء عددا كبيرا من حمامات السباحة الصغيرة ، و « بلاجات » الاستحمام الممتدة بمحاذاة الشاطىء ، ولا سيما فى منطقة (عين دياب) الساحرة ، الراقدة تحت سفح تل (عنفة) ، حيث يقوم أجمل الاحياء السكنية فى المدينة ، وسط اطار خلاب من الاشجار والازهار .

وفى منطقة (عنفة) كانت تقوم فى الماضى البعيد مدينة أثرية قديمة ، وان كان العصر الذى وجدت فيه والحضارة التى أنشأتها ما يزالان مجهولين، بحيث لا يعرف على وجه التحديد هل شيدها البربر ، أو الفينيقيون ، أو الرومان ! .. ومن المصادفات - ربما غير المقصودة - أن المنطقة ذاتها كان لها حظ أن كتبت فيها صفحة هامة من صفحات التاريخ الحديث ، ففيها عقد مؤتمر « الحلفاء » فى يناير عام ١٩٤٣ .. وهو المؤتمر الذى قرر مصير مرحلة جوهرية من مراحل الحرب العالمية الثانية ، وبالتالى قرر مصير العالم ودوله الكبرى ، لسنوات .. لا يعرف غير الله مداها !

اللغة واللهجة المحلية

• وفى الدار البيضاء عدد من فنادق الدرجة الاولى ، ذات المستوى العالمى . وأشهرها فندقا (المنصور) و (مرحبا) . ونظرا لتغلغل الثقافة الفرنسية بين أهالى المدينة فانهم ينطقون اسم الفندق هكذا (مارابا) ، وان كان يكتب بالافرنجية



منظر من الجو لميناء (الدار البيضاء) الضخم ، وقد ازدحم بالسفن والأرصفة .

Marhaba . وعلى ذكر الثقافة والتعليم فى هذه المدينة بالذات ، وفى بلاد المغرب على وجه العموم ، فقد فرض الفرنسيون لغتهم على الشعب ، طوال زمن الاحتلال ، بحيث صار العامل وبائع الصحف والخادم فى المنازل ، ورجل الشارع ، يتكلمون الفرنسية بنفس السهولة واليسر اللذين يتكلمون بهما العربية ، بل انك اذا كنت حديث عهد بالاقامة فى البلاد ، تجد من الاسهل لك أن تخاطبهم بالفرنسية ، نظرا لان لهجتهم العربية يغلب عليها الطابع المحلى الخاص الذى يتميز بالسرعة الفائقة ، بحيث تختلط الكلمات فى أذنك اذا لم تألفها بمرور الزمن .. فضلا عن أن لهم تعبيرات ومصطلحات خاصة لا تستعملها الشعوب العربية الاخرى بطبيعة الحال . أما لغة الكتابة أو اللغة الفصحى فهى واحدة بالضبط ، عندهم وعندنا ..

والى العدد القادم .. لنواصل الحديث .



LES RIVES
SAUVAGES
DE L'AMOUR
par
LESLEY BLANCH
شواطئ الحبّ الضارية!
من الدير.. إلى مخدع السلطان!
قصة حياة المغامرة الفرنسية "إيمية دو بوك دى ريفيرى"
انتقمت لابنة عمها الامبراطورة، فغيرت وجه التاريخ فى تركيا وأوروبا!
للكاتبة المؤرخة "ليسلى بلانش"

مقـدمة المحـرر

هذا الكتاب ..

اسطنبول الساحرة .. ذات صباح من أكتوبر الماضى .

كانت قد هفت نفسى الى قدح من القهوة «التركى» ــ التى لا تجدها فى المدينة التركية العريقة الا فى بهو فندق هيلتون الجميل ، المشرف على أجمل بقعة من البوسفور ــ فيممت شطر ذلك الفندق .. وقبيل بابه بأمتار ، فى أحد الحوانيت التى أقيمت على جانبى مدخله بشارع (جمهوريت) ، اعتقلت خطواتى واجهة مكتبة (هاشيت) العامرة بالكتب : الفرنسية ، والانجليزية ، والالمانيــة ، والايطاليــة .. الخ .. فوقفت أقرأ أسماءها ، ثم دخلت أقلب بعضها ، وأتصفح فصولها ومقدماتها .. وحين نبهتنى البائعة الحسناء الى أن وقت اغلاق المكتبة قد حان ، قمعت « فراغة عينى » وقنعت بنحو عشرة ــ فقط ــ من أمتع الكتب التى رأيتها فى المكتبة .. وفى مقدمتها هذا الكتاب الرائع !

كان عنــوانه الشــاعرى بالطبع هو أول ما جذبنى اليه : « شــواطىء الحب الضــارية » Les Rives Sauvages de l'Amour .. يا له من عنوان !

.. واستغرقت فى تقليب صفحاته . انه فى الواقع أربعة كتب فى كتاب . كل كتاب منها يتضمن سيرة شخصية نسائية فذة ، مغامرة .. شخصية دخلت التاريخ من أضيق أبوابه : باب الحب ! .. فشخصيات الكتاب الأربع عاشقات مغامرات ، تمردن على أغلال طبقتهن الاجتماعية وعلى تقاليد عصرهن — وكلهن ينتمين الى أوربا القرن التاسع عشر ! — ورغم اختلاف طبائعهن ، واطار حياتهن ، وظروف نشأتهن ، فان ثمة قاسما مشتركا قد جمعهن معا بين دفتى كتاب واحد : هذا القاسم المشترك هو عشقهن جميعا للشرق ! ان عطر الشرق يفوح بشدة من بين صفحات الكتاب ، ويتضوع بين سطوره ، حيث تتوالى هذه الأسماء : القسطنطينية .. صحراء الجزائر .. مكة .. هرر .. وعشرات غيرها من مدن آسيا وافريقيا ! .. كان الشرق يمثل فى نظر الأوربيات يومئذ جنة اشباع الحواس الجائعة ، وفردوس ذوات الخيال المتقد .. كان يمثل بلاد «الكيف» ، والخمول العذب — أو «السلام غير المبالى بشىء ! » ، كما كن يسمينه — والتأملات المسترخية على الأرائك والحشيات ، تحت تأثير التخدر الذى يسرى فى الأوصال من حبات «الأفيون» المذهبة .. أو الدخان المتصاعد من « الجوزة » و « النارجيلة » !

نعم ، كان الشرق يقدم لهن دائما هذه الأشياء ، ويعد خيالهن بمتع أخرى أكثر وأعظم ! .. وكانت فى الشرق ــ ما تزال ــ الكفاية من الفرص والفسحة من الوقت لأن يستشعرن أنوثتهن ، ويمارسنها !

كان يجمع بطلات الكتاب الأربع انهن جميعا وجدن فى الشرق هذه الآفاق الواسعة للانفعالات ، والجرأة التى كانت فى طريقها الى الاختفاء من الغرب !

وكان يجمعهن أيضا أن كلا منهن اتخذت الحب ــ بطريقتها الخاصة ــ وسيلة للتعبير عن نفسها .. بل للتحرر من أسر نفسها ! .. كن جميعا «واقعيات» فى دنيا حالمة ، أو « حالمات » فى دنيا واقعية .. وقد آثرن أن يعشن حلم عصرهن حتى الثمالة ! .. ففى ذلك العصر كانت الحياة « الرومانتيكية » الحقة هى التى تتألف من : تنهدات ، وهجر ، ودموع ، ومرض .. !

كانت « غادة الكاميليا » تسعل حتى تفقد حياتها ، خلف منديل مطرز من الدانتلا .. وموسيقى «شوبان» الحزينة يعزفها « ليست » السعيد العربيد ، فتحلق أنغامها فوق حدائق يطوف بها الضباب على ضفاف بحيرة (كومو) ، أو تختلط مع أجراس دير مهجور ! ..

وكانت «شارلوت ستيجليتز» تقدم على الانتحار كى تثير الحمية الفنية فى زوج فاتر الهمة ، ضعيف الموهبة !

كان أسلوب الحياة شاحبا .. والطهر — الذى كان طابع العصر « الفيكتورى » — يغزو المجتمع الأوربى شيئا فشيئا .. والحب يختنق فى القلوب .. والأنوثة ذاتها تكاد تصبح سرا « فاضحا » ! .. وفى بيئة أولئك الشعراء المصدورين ، والمحجور عليهم اجتماعيا ، كان لا بد من جرأة كبرى للاستمتاع بالمباذل البهيجة التى يعد بها الشرق ! .. وكانت بين النساء — ولا سيما الانجليزيات — كثيرات شغفن بأسطورة الحياة الخلابة فى الشرق ، فتبعن هذا السراب بغير مبالاة .. رحلن فى بعثات كبيرة أو رحلات فردية ، كسائحات أو « رحالات » ، أو مستشرقات .. نساء من طراز رائدات الجيل التالى اللواتى ما تزال أسماؤهن ماثلة فى الأذهان ، من أمثال « ليدى هستر ستانهوب » — ذات المسلك الشاذ — أو « جرترود بيل » ، أو « فريا ستارك » .. الخ .

وفى العصر الذى نحن بصدده كان ضمير الغرب قد تنبه فجأة لمظاهر الرومانتيكية فى الشرق ، وكانت أشعار « بيرون » تسكر جمهورا متعطشا .. وكان ثمة مسافرون مثل الأمير « بوكلر موسكاو » يعودون

من رحلاتهم ليرووا القصص عن فروسية العرب ، والكرم الشرقى !

.. وعلى بعد آلاف الأميال ، كان « بوشكين » يعيش فى جو أساطير بلاد القرم . وكان فالس « المملوك » ذو الطابع العربى يعزف على البيانو فى كل بيت .. وفى ميدان آخر من ميادين الفن ، كان « أنجر » و « ديلاكروا » يرسمان لوحات خالدة يفوح منها شبق الجوارى الشركسيات ، وشهوات غوانى الأتراك العاريات فى الحمام !

فى تلك الحقبة الحافلة ، كانت هناك آلاف من نساء أوربا يضنيهن الشوق الى أن « يترجمن » السراب الرومانتيكى الذى يداعب خيالهن ، الى حقيقة .. لكن فرصة تحقيق هذا الحلم لم تتح الا لنساء معدودات ، منهن البطلات الأربع لهذا الكتاب ، اللواتى اتجهن فى ثقة الى الشرق ، واستطعن أن « يعشن » هذا السراب .. بل استطعن أن يستمتعن بدرجة من الحرية كانت نساء الشرق أنفسهن ، من ذوات « البردة » والنقاب ، يجهلنها فى ذلك العصر !

والواقع أن كل امرأة من هؤلاء النساء الأربع وجدت على ضفاف الشرق « الضارية » تكملة شخصيتها الأنثوية ! .. ومنهن من بزت الزوجة

الشرقية فى خضوعها التقليدى للرجل ، مثل « ايزابيل برتون » .. المرأة التى جرؤت ـ فى عنفوان العصر الفيكتورى المتزمت ـ على أن تهجر كل شىء فى سبيل غرامها العنيف ، فتجوب مع حبيبها افريقيا .. وتقتحم (هرر) .. وتدخل (مكة) !

أو مثل « جين ديجبى » ، المطلقة الغنية التى عاشت حياة مضطربة ، وأحبت رجالا كثيرين .. ومع ذلك احتفظت ببراءة عجيبة ، ومثالية رومانتيكية !

أو مثل ...

ولكنى أطلت .. فتعال نستمتع معا بمرافقة البطلة الأولى من بطلات الكتاب الأربع .. فى رحلة حياتها الحافلة بالمغامرات !

رسالة من شبح

تلخيص : ماهر مينا

نبوءة العرافة !

• فى أحد ايام عام ١٧٧٥ ، تسللت فتاتان لم تتجاوزا ربيعهما الثانى عشر ، من قصرهما الفخم المشيد وسط ضيعة شاسعة بجزيرة « المارتينيك » بأمريكا الوسطى ، ميممتين شطر احد الاكواخ الفقيرة المتداعية القريبة من الضيعة ، حيث كانت تقطن عرافة عجوز شتهرت بصدق نبوءاتها . **كانت « ايميه دوبوك دى ريفرى » وابنة عمها « جوزفين » قد قررتا**



استشارة الساحرة كى تكشف لهما عن طالعهما ، وتتنبأ بما يخبئه لهما المستقبل من أحداث !

وما أن دلفت الصبيتان الى الكوخ ، حتى لمحتا العرافة وقد جلست أمام منضدة وراحت تغمغم بكلمات مبهمة . وسرعان ما تناولت كف « جوزفين » ــ تلك الفتاة التى قدر لها أن تكون زوجة لنابليون وامبراطورة لفرنسا ! ــ وطفقت تروى لها تفاصيل حياتها المقبلة ، الحافلة بالاحداث والمغامرات ، وتحدثها عن غرامياتها ، وزواجها الاول الفاشل من « بوهارنيه » ، وعن الثورة الفرنسية التى ستودى بحياته .. ثم تنبأت « لجوزفين » بأن زوجها الثانى سيكون رجلا مكتئبا ،

حاد الطباع ، تتبدى على مظهره أمارات التفاهة ، **ولكن العالم بأسره سيتحدث عن أمجاده ، وستجثو شعوب وأمم عند قدميه ، اذ أنه سيكون فاتحا مغوارا !.. أما « جوزفين » فستصير سيدة عظيمة ، بل ملكة** ، ولكنها ستموت شقية ، منبوذة ، نادمة على الحياة الحرة الهادئة التى كانت تحياها فى « المارتينيك » !

واذ حل دور « ايميه » ، اقتربت من العرافة فى لهفة وقد بسطت لها كفها ، وما لبثت أن سمعتها تقول لها : « اسوف يبعثون بك الى أوروبا لاستكمال تعليمك . بيد أن السفينة التى ستسافرين عليها لن يقدر لها أن توصلك الى وجهتك ، اذ ستقع بين أيدى القراصنة . وسيقتادونك أسيرة الى قصر منيف حيث تلدين ابنا .. **وسيحكم ابنك حكما طويلا مجيدا ، ولكن عرشه سيكون ملطخا بدم سلفه ! اما انت ، فلن تنعمى قط بحياة البلاط المترفة ، ولكنك ستقيمين فى قصر عظيم ، وبين يديك ستكون مقاليد سلطات عليا** .. على أن اليوم الذى ستشعرين فيه انك قد ظفرت بالسعادة ، سيكون اليوم الذى ستتبدد فيه هذه السعادة كالحلم ، اذ ستصابين بمرض عضال سرعان ما سيبعث بك الى القبر .. »

وغادرت الصبيتان كوخ الساحرة ، وقد غمرهما شعور غامض هو خليط من الخوف والشوق .. من الرهبة والتطلع الى ذلك « المجهول » الذى كان يدخره لهما المستقبل !..
ترى هل يقدر لنبوءات العرافة أن تتحقق يوما ؟

جدهما كان ضابطا فرنسيا عريق النسب

• **كانت** « ايميه دوبوك دي ريفري » تنحدر من أسرة

نورماندية عريقة ، كريمة المحتد . فقد كان أحـد أجدادها ـ « بيير دوبوك » ـ ضابطا فى كتيبة الكاردينال دى ريشيليو ، بيد أنه ما لبث أن نفى بعيدا عن فرنسا على أثر قتله غريما له فى احدى المبارزات ، نظرا لتحريم المبارزات فى ذلك العهد . على أن الضابط الشاب سرعان ما لاذ بالفرار ، مبحرا على ظهر سفينة كانت متجهة الى جزر « الانتيل » بأمريكا الوسطى . وهناك التحق بقوات حاكم جزيرة « المارتينيك » ، وراح يظهر ضروب الشجاعة والبطولة فى معارك أصيب خلالها عدة مرات، بيد أنه كان يخرج منها دوما ظافرا منتصرا . وفى عام ١٧٠١ ، أنعم عليه بنوط الشرف والنبل تقديرا لما أداه من خدمات . وقد ظل أولاده من بعده يعيشون فى « المارتينيك » ، وتزوج أحدهم ـ وهو « فرانسوا هنرى دوبوك دى ريفرى » ـ **فأنجب « ايميه » ، التى كتب لها أن تتولى مقاليد الامور فى « امبراطورية » ضخمة ، مترامية الاطراف !**

رحلة .. تكتنفها المخاوف !

• وحينما قررت الاسرة فى عام ١٧٧٦ ارسال « ايميه » من « المارتينيك » الى فرنسا لاتمام تعليمها ، تذكرت الفتاة على الفور نبوءة العرافة ، وخاصة ما جاء منها متعلقا بالقراصنة ، **فأحست بكيانها يهتز ويرتعد ، بيد أنها لم تجسر على مكاشفة أحد بمخاوفها ، وراحت تعد عدتها للرحيل ..** وان هى الا أيام حتى كانت جموع الاهـل والاصدقاء يقفون فى ميناء « فور رويال » لتوديع « ايميه » . وفيما كانوا يلوحون لها مودعين ، كانت السفينة التى تقل الفتاة الصغيرة تختفى عن أنظارهم شيئا فشيئا متجهة نحو الشرق !

ثمانية أعوام فى الدير !

• **كان** دير (نانت) الذى أرسلت اليه « ايميه » يضم بنات علية القوم والاسر الارستقراطية فى فرنسا . ولقد مكثت فيه « ايميه » ما يقرب من ثمانية أعوام ، وهى حقبة طويلة تتجاوز كثيرا ما كان مقدرا لها أن تبقاه هناك . ذلك أن الحرب كانت قد نشبت بين فرنسا وانجلترا فى عام ١٧٧٨ ، بسبب نزاعهما حول المستعمرات الامريكية ، **ومن ثم رؤى ارجاء عودة الفتاة الى وطنها الى أن تنتهى الحرب ، حتى لا تتعرض فى الطريق لاخطار المعارك التى كان البحر مسرحا لها** . وانصاعت الفتاة للامر مستسلمة ، وقررت الانتظار حتى تهدأ الحال ، فتعود الى أهلها سالمة ، وتتزوج وتعيش بينهم حياة هادئة سعيدة !

وانتهت الحرب فى عام ١٧٨٤ ، وكانت « ايميه » قد غدت فتاة فى ربيعها الحادى والعشرين ، تفيض حيوية وجمالا يستلفتان الانظار . فأخذت تتهيأ لمغادرة الدير والعودة الى وطنها « المارتينيك » ، حتى اذا ما انتهت من اعداد عدتها ، ودعت راهبات الدير ، وفارقتهن تصحبها دعواتهن وصلواتهن ، بعد أن زودنها بمجموعة من الكتب تساعدها على تبديد ما قد يعتريها من سأم وملل أثناء الرحلة الطويلة !

ومضت أيام على ابحار السفينة ، حتى اذا ما بدأت توغل فى خليج بسكاى ، هبت عليها عاصفة عاتية كادت أن تدفع بها الى قاع البحر ، لولا ان ظهرت على حين غرة ــ وكأنما بفعل معجزة ــ سفينة أسبانية تجارية كانت قد لمحت ما تعانيه

السفينة المنكوبة من محنة بسبب العاصفة ، فأقبلت لانقاذها من هلاك محقق . وان هى الا فترة وجيزة حتى كانت قد نقلت على ظهرها جميع الركاب والملاحين الفرنسيين الذين كانوا فى حال يرثى لها لفرط ما أصيبوا به من اعياء وجزع !

وفى اليوم التالى ، كانت العاصفة قد هدأت ، والجو قد صحا . وفيما كان ركاب السفينة التى غرقت يهنئون بعضهم بعضا بالنجاة ، لاحت فجأة عن بعد سفينة كبيرة يرفرف عليها علم القراصنة ، وقد أخذت تقتفى أثرهم ، وتقترب من سفينتهم شيئا فشيئا !.. ولم يكن ثمة وسيلة للدفاع أو الفرار ، فسرعان ما أدركتهم ، واستطاعت دون ما مجهود يذكر أن تتغلب على مقاومة السفينة التجارية ، وأن تقودها بما كانت تحمل من ركاب وبضائع الى ميناء (الجزائر) ، عاصمة القراصنة فى ذلك الحين ومركز تجمعهم !

على أن قائد القراصنة ما لبث أن لمح ما كانت تتمتع به « ايميه » من فتنة وجاذبية ، فعول بينه وبين نفسه على أن يخص بها رئيسه وزعيمه « بابا محمد » حاكم الجزائر ، عله يظفر برضاه ، وينال حظوة لديه تجعله يتفوق على زملائه من القراصنة . فأمر بحبس الفرنسية الحسناء فى « قمرته » الخاصة ، ومعاملتها باحترام بالغ . ولكن ما أن وصلوا الى الجزائر ، ووقعت عينا « بابا محمد » على « ايميه » ، حتى أدرك بدوره أنها هدية نادرة خليقة بأن تكون من نصيب سلطان القسطنطينية ذاته ، الذى لا بد سيسر بامتلاكها ، فيبادر الى مكافأته واغداق الاموال عليه !.. واذ ذاك أمر زعيم القراصنة باعداد سفينة كبيرة جديرة بمحظية السلطان المقبلة ،

لكى تبحر بها الى تركيا . وان هى الا أيام ، حتى كانت « ايميه » على ظهر السفينة وقد ارتدت أفخر الثياب الشرقية وأغلاها ، متجهة صوب القسطنطينية ..

من الدير .. الى الحرملك !

• **وبذلك** سارت فتاة «المارتينيك» فى الطريق الذى خطته لها الاقدار ! كانت – اذ تسير فى هذا الطريق لمواجهة حياتها الجديدة – تبتعد شيئا فشيئا عن كل ما كان يربطها بالماضى ، وعن آخر أمل لها فى العودة الى وطنها وقومها .. وأمست وحيدة تجابه مصيرها المجهول بمفردها ، دون أن يقف بجانبها أحد من ذويها أو أصحابها .. وهى الفتاة الساذجة ، اللينة العود ، القليلة التجارب ، خريجة دير الراهبات ..!

وبدت الرحلة لايميه طويلة لا نهاية لها ، وخيل اليها أن هذا السكون الرهيب الذى يفصل بين ماضيها ومستقبلها .. سكون أبدى !

وأخيرا لاح بوغاز الدردنيل من بعيد ، وأخذت السفينة تدنو منه رويدا رويدا ، حتى اذا ما بلغته دارت حوله ، فظهرت اذ ذاك مدينة (اسطنبول) بقبابها ومآذنها العديدة ، وقد أسبغت عليها شمس الاصيل لونا ورديا ساحرا ! انها عاصمة الامبراطورية العثمانية ، ومقر خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الاول ، (الذى ربطت الاقدار مصير « ايميه » بمصيره !)

وفيما كانت السفينة تلقى بمرساها فى الميناء ، استطاعت « ايميه » أن ترى القصر الملكى الكبير الذى راحت مياه البوسفور

ترتطم به فى رفق ، بينما أحاط به خليط عجيب من لاكشماك ، والتكنات ، والحظائر ، والسجون ، والحدائق التى تتسع لايواء آلاف النسمات . وأمام جدران القصر - الذى بدا كالقلعة الحصينة - كانت أشجار السرو تقف فى سكون رهيب وكأنها الحرس الساهر . . **فاذا برعشة تسرى فى كيان ((ايميه)) ، وبالخوف يملأ قلبها ، حتى اذا ما لمحت كبير الاغاوات مقبلا نحوها لاستقبالها واقتيادها الى القصر ، خارت قواها ، وسقطت مغشيا عليها !**

الرقابة الصارمة على المحظيات فى ((الحريم)) !

• **حينما** عادت ((ايميه)) الى رشدها ، الفت نفسها فى ((الحريم)) وسط مئات المحظيات الاخريات اللائى كن ، شأنهن شأن المستجدات فى الدير ، يفدن الى ذلك المكان حيث ينلن اسماء جديدة ، وشخصيات جديدة ، ويعشن بقية أيامهن وفقا للقواعد والتقاليد المعمول بها فى ((الحريم)) ! . . ولعل ((ايميه)) قد حسبت أن أيام الدراسة فى دير (نانت) عادت مرة أخرى ، فقد وجدت فى ((حريم)) قصر السلطان عين الرقابة الصارمة ، وعين مجموعات الفتيات اللاتى لا ينقطع ضحكهن وتشاحنهن لاتفه الاسباب ! وكانت أصغرهن لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها ، بيد أنهن جميعا - بلا استثناء - كن يجهلن الفرنسية ، فلم تستطع ((ايميه)) أن تفقه كلمة واحدة من حديثهن ، ولم تعرف ما اذ كن يسخرن منها أم يتوددن اليها ، وما اذا كان كلامهن ينطوى على الحقد أم ينطوى على الحب ! . . على أنها استطاعت أن تفطن من نبرات أصواتهن الى ما كن يتحدثن

فيه ـ فالغيرة شعور قلما يخطىء المرء فى تبينه ـ وكان لابد لقادمة جديدة أوتيت هذا الحسن الآسر أن تتعرض لمحن قاسية من جراء .. الغيرة !

وعند قدوم « ايميه » الى قصر الحريم ، كان كبير الاغاوات يتمتع بنفوذ ضخم فى البلاط ـ اذ كان يحظى بحب السلطان واحترامه ـ ومن هنا فعندما تذكرت القادمة الجديدة فيما بعد أنه ذهب بنفسه لاستقبالها ، أدركت مقدار ما كانت تتمتع به من مكانة فى القصر .. ولعل موقف المحظيات الاخريات منها ، والتبجيل الذى كان لا يفتأ يبديه نحوها الاغاوات الذين كانوا مكلفين بالسهر عليها .. قد أثرا فى نفسها أيما تأثير ، وجعلاها تستعيد بعض شجاعتها . ولعلها اعتقدت اذ ذاك أنه قد يكون فى وسعها يوما الاعتماد على كبير الاغاوات فى توجيه مصيرها المجهول .. الوجهة التى تريدها !

أما كبير الاغاوات فقد كان يحملق فى « ايميه » بدوره فى تفكير وتأمل .. كان يقدر ما تتمتع به من مواهب وصفات نادرة ، ويرى فيها مخلوقا نشأ ونضج فى العالم الخارجى ، واستنشق نسيم الحرية الذى كان بمثابة عطر مسكر ، لا بالنسبة لقصر السلطان فحسب ، وانما بالنسبة لتركيا بأسرها !

دسائس الاغاوات والمحظيات فى قصر عبد الحميد

• **وكان** قصر السلطان عبد الحميد ميدانا لشتى الدسائس والمؤامرات التى لا ينفك يحيك خيوطها ذوو المآرب والمطامع ! وكان كبير الاغاوات قد تحالف مع فريق صغير من الساسة

ورجال البلاط المتحررين ، ترأسه امرأة شركسية كانت فيما مضى محظية للسلطان مصطفى الثالث ، وانجبت منه ابنها سليم الذى أصبح وليا للعهد ، والمرشح الاول لعرش تركيا !.. ذلك ان الخلافة التركيـة لم تكن تتوارث أبا عن جد ، وانما كانت تمنح لاكبر الاحياء سنا من الاسرة الحاكمة ! **ومن هنا كانت حياة سليم فى خطر دائم بسبب غيرة احدى محظيات السلطان عبد الحميد ، التى كانت تسعى للتخلص من سليم حتى يغدو ابنها مصطفى الوريث الوحيد للعرش .** وما كانت هذه المرأة لتطمع فقط فى أن يصير ابنها خليفة السلطان ، بل كانت تتطلع أيضا الى أن تتبوأ مركز السيدة الاولى فى تركيا ، وزعيمة المسلمات فى سائر أنحاء الامبراطورية !

وما من شك فى أن الاشهر الاولى التى قضتها « ايميه » فى قصر الحريم كانت امتحانا قاسيا لها . فقد تغيرت حياتها كلية ، بل أن اسمها ذاته تغير ، اذ أصبح يطلق عليها اسم «الحسناء» ! وقد أدركت الفتاة أنه بات من العبث التطلع الى الوراء .. الى حيـاتها فى « المارتينيك » ، أو فى دير نانت ، وانه لم يعـد يجديها شيئا النظر الى حيـاة القصر المعقدة بعينى الفتاة الاوروبية المحافظة .. والتشبث بفكرة أنها كالحمل الذى يجمل ويزين قبل تقديمه للمذبح .. فى الوقت الذى كان يشعر فيه كل من كان يحيط بها ، من أصغر الوصيفات الى أكبر الاغاوات ، انها قد اختيرت دون الكثيرات غيرها لهذا « الشرف » الكبير !

ولكن حينما قام كبير الاغاوات بابلاغ « ايميه » أن الاختيار قد وقع عليها للانتقال الى مخدع السلطان ، رفضت وتمنعت فى اصرار ! ومع أنها كانت فتاة ذكية طموحة ، وبدأت تتأقلم

بحياتها الجديدة ، الا انها لم تكن بعد قد حسبت لهذه اللحظة حسابها . ولعلها كانت واثقة من أن ليس ثمة طريق آخر يوصل للحكم ، ولكنها كانت تستشعر فى الوقت ذاته الاحساس الطبيعى الذى يخالج فتاة نشأت فى الدير ، ومن ثم تخشى على مصيرها . كانت لحظة رهيبة بالنسبة لها أن تجد نفسها مسوقة الى مخدع رجل كانت تعتبره ولا ريب وحشا ضاريا . وما لبثت أن انفجرت انفجارا عارما عنيفا ، لعله كان آخر خلجة انتابت الفتاة المراهقة ، بل الطفلة التى كانت مازالت تذكر - فى جلاء - بيتها ، وأسرتها ، ومربيتها العجوز !

تمنع ((الحسناء)) يهدد حياة كبير الاغاوات !

• وجزع كبير الاغاوات، وتملكه الذعر ازاء هذه المقاومة التى لم يشهد لها مثيلا طوال حياته . وكان يتعين عليه أن يمنع بأى ثمن وقوع أية جلبة فى الحريم ، وخاصة بعد الاوصاف الرائعة التى أبلغت للسلطان عن الاسيرة الفرنسية الحسناء .

على ان سورة الغضب التى استبدت ((بايميه)) كانت من الحدة والعنف بحيث جعلت كبير الاغاوات يخشى على حياته ، وراح جسده ينتفض لفرط ما انتابه من هلع ، اذ تصور هول العقاب الذى سينزله به سيده اذا ما فشل فى مهمته . على أنه سرعان ما ترك ((ايميه)) فى ثورتها ، وهرع الى صديقته المرأة الشركسية والدة سليم ، يسألها المشورة والمعونة . واستطاعت المرأة بما أوتيت من براعة ودهاء ان تساعد كبير الاغاوات ، وان تهدىء من روعه .. وما أن جىء بالفتاة اليها حتى راحت تحاول اقناعها بأن أية محاولة للهرب أو التملص أمر ميئوس

منه ، وانها خليفة — اذا ما أذعنت لرغبة السلطان — ان تنجب ولدا قد يتولى الحكم يوما . ثم أخذت تطمئن الفتاة من ناحية طباع السلطان ، وطفقت تحدثها عن الدور الذى كان فى وسعها القيام به — بفعل تأثيرها عليه — فيما يتعلق بالاصلاحات التى كانت تركيا فى أمس الحاجة اليها . ولم تتورع — فى الوقت ذاته — عن أن تصف لها مبلغ الخطر الذى كانت هى — المرأة الشركسية — وابنها سليم وأنصاره يتعرضون له من جانب محظية السلطان عبد الحميد ووالدة ابنه مصطفى ، وجعلت تؤكد لها ما يعلقونه عليها من آمال فى حمايتهم ، تلك الحماية التى ما كانت لتتحقق الا بقبولها دعوة السلطان !

وكانت ايميه فتاة عملية قبل كل شىء . وقد أوحت اليها بصيرتها بأن المرأة الشركسية كانت صادقة فى أقوالها ، واذ ذاك أقلعت عن ثورتها ، وكفكفت دمعها ، وقد استقر عزمها على التسليم بما قدر لها الآن ، علها تستطيع أن تتحكم فى مصيرها بعد ذلك !

وفى غبطة وانتصار ، قاد كبير الاغاوات الآنسة « ايميه دوبوك دى ريفرى » الى مخدع السلطان عبد الحميد الاول ، خليفة الله فى أرضه !!

نبوءات عرافة المارتينيك تتحقق .. بالتوالى !

• **ولم** يكن السلطان عبد الحميد « تركيا رهيبا » ، بل كان رجلا سمح الطباع ، يكره الدسائس والمؤامرات التى تحاك فى الحريم . وكانت « ايميه » قد بلغت ذروة جمالها .. ذلك الجمال المشرق المشوب بالنضارة والحيوية الذى ورثته عن

أجدادها النورمانديين ، والذى كان مثار اعجاب سائر المحظيات الشرقيات فى الحريم . فسرعان ما استطاعت ، برقتها وتعليمها ، أن توقع عبد الحميد فى أسر هواها ، وان تجعله يؤثرها على المحظية الاخرى والدة مصطفى ، فلم ينقض طويل وقت حتى أعلنت « ايميه » محظية « رسمية » للسلطان ..!

وبعد عام ، فى العشرين من يوليو عام ١٧٨٥ ، ولد ابنها محمود . وبمولده صارت ايميه شخصية مرموقة فى البلاط ، اذ راحت الانظار تتجه الى ابنها باعتباره مرشحا لخلافة العرش العثمانى .. ولابد أن كلمات عرافة « المارتينيك » قد طنت اذ ذاك فى اذن الفتاة الفرنسية !

وفى ذلك اليوم ، أضيئت جميع أنوار القصر احتفالا بمولد ابن السلطان . وقد أحس السلطان عبد الحميد بالشباب يعود اليه ، فان واحدة من المحظيات لم تكن لها فتنة « ايميه » ولا حيويتها ، كما أن واحدة منهن ــ باستثناء المرأة الشرسة والدة مصطفى ــ لم تنجب له ولدا !

وفيما كانت الاحتفالات تجرى فى كل مكان فى البلاد ، كانت والدة مصطفى تلزم جناحها فى القصر ، وقد استبد بها الحزن والاكتئاب . فقد كان المولود الجديد يأتى دوره بعد سليم ومصطفى فى ترتيب الخلافة ، ومن ثم كان يجب التخلص من سليم والطفل ، كى يصبح مصطفى الوريث الوحيد للعرش . أما « ايميه » ، فكانت تجلس بجوار المهد المرصع بالاحجار الكريمة ، وقد غمرتها ثقة كاملة فى مستقبل ولدها : فقد تنبأت ساحرة « المارتينيك » بما ينتظره من مجد ، وقد صحت نبوءاتها جميعا حتى الآن !

تدس أنفها فى السياسة الخارجية .. للتقرب من فرنسا !

• **واخذت** مكانة « ايميه » تتوطد يوما بعد يوم لدى عبدالحميد، واضحت لها كلمة مسموعة فى القصر . ومع ان حقبة طويلة انقضت منذ قدومها الى « الحريم » ، الا انها ظلت محتفظة بطابعها الغربى الذى لم تستطع أن تؤثر فيه العادات والتقاليد واللغة التى كانت قد أمليت عليها . وفى تلك الاثناء ، شرعت فى تربية ولدها محمود ، وكان طفلا قوى البنيان ، أوتى شخصية مستقلة متحررة ، ولكنه كان مع ذلك حميد الخصال اذا ما قورن بغيره من الامراء المدللين . وراحت « ايميه » تحادثه سرا باللغة الفرنسية ، وتلقنه أساطير بلادها ، وتاريخ فرنسا ، وان ظلت على احترامها للتقاليد التركية التى كانت تقضى بعدم الاشارة الى هزائم الاتراك فى الحروب الصليبية ، مما جعلها تمسك عن محادثة ابنها عن ريتشارد قلب الاسد وغيره من القادة المسيحيين !

ولم تكن « ايميه » لتحجم أحياناعن تدبير المؤامرات السياسية التى كانت نتائجها وآثارها تتجاوز نطاق قصر السلطان ، بل والحدود التركية ذاتها . **فليس من شك فى أن فتاة « المارتينيك » كانت الموعزة بالرسالة الغريبة الشاذة التى بعث بها سليم فى عام ١٧٨٦ ، بوصفه وليا للعهد ، الى لويس السادس عشر ملك فرنسا .** ولعل ذلك كان اول عمل من سلسلة الاعمال التى قامت بها بقصد تحقيق التقارب والصداقة بين تركيا وفرنسا ، اذ لم تكن ثمة علاقات ديبلوماسية بالمعنى الصحيح بين تركيا ودول الغرب فى ذلك الوقت ! ترى ما الذى حدا اذن

بسليم الى كتابة هذه الرسالة ؟!.. لقد اثبتت الايام بعد ذلك أن الخطوة المشوبة بالتهور التى أقدم عليها الامير سليم ، الذى لم يكن قد اعترف له بعد بأية سلطة رسمية تبيح له التدخل فى سياسة تركيا الخارجية ، لم يكن يقصد بها استجلاب صداقة لويس السادس عشر ، ولا توطيد العلاقات مع فرنسا .. وانما كانت تستهدف فى الحقيقة ارضاء المحظية الفرنسية الحسناء « ايميه دوبوك دى ريفرى » ، مما يبين فى جلاء مبلغ التأثير الذى كان لها على الامير سليم سلطان تركيا المقبل !

وفاة السلطان .. ونشوب الثورة الفرنسية الكبرى !

• **وقد** وصلت « رسالة الشبح » ــ كما أطلق عليها ــ الى فرساى فى اكتوبر عام ١٧٨٦ . ولكنها لم تؤد الى النتائج المرجوة ، فلم يبعث الملك لويس برده عليها الا فى شهر مايو من العام التالى ، وقد اقتصر فيها على بعض العبارات المبهمة الملتوية التى لم تكن لتحقق بأى حال رجاء الامير التركى ! على أن هذا الفشل لم يبعث اليأس فى نفس « ايميه » ، بل دفعها الى مضاعفة جهودها ، وترقب الفرص لتحقيق ماتصبو اليه !

وفى ابريل عام ١٧٨٩ ، مات السلطان عبد الحميد ، فخلفه الامير سليم ، باسم « السلطان سليم الثالث خليفة الله فى أرضه » ! وكان يومئذ شابا فى السابعة والعشرين من عمره ، يفيض قوة وحماسا وحبا للوطن . وقد سار وراءه الشعب بأكمله ، ايمانا منه بأنه سينجح فى القضاء على مفاسد العهد البائد ، وخفض الضرائب التى كان الاتراك يرزحون تحت

وطائها . ولكن على الرغم من حماسه العارم، وقراراته الجريئة ، وتأييد « ايميه » له ، فانه كان أعجز من أن يضطلع بهذه المهمة الضخمة . فقد كان يحدق به خطران داهمان : جنود الانكشارية فى الداخل ، والروس فى الخارج !.. غير ان كل شىء كان رهنا بتكوين جيش جديد منظم على النسق الفرنسى ، ويدين بالولاء للسلطان وحده ، فشرع سليم فى انشاء فرقة أطلق عليها اسم « النظام الجديد » ، توطئة للقضاء على جنود الانكشارية العصاة !

يستنجد بنابليون ، ضد انجلترا وروسيا !

• ولم تكن الاصلاحات الداخلية التى حققها سليم فى ذلك الوقت قد أثارت عليه بعد غضب الشعب التركى . فلم يشأ الانكشاريون أن يضربوا ضربتهم للاطاحة بسليم ، وآثروا الانتظار ، اذ كان أتباعه مازالوا أقوياء ، وأنصاره عديدين ! **على أنه حينما ماتت والدة سليم بعد ذلك ، ادرك الانكشاريون أنهم تخلصوا من أحد أعدائهم الخطرين ، وغدت « ايميه » تقف وحدها أمام هؤلاء الارهابيين ، لا يساندها سوى ابنها محمود والسلطان سليم ، الذى لم يكن من القوة بحيث يستطيع الاجهاز عليهم !** فقد ضعضعت الحروب جيشه ، وقضت على ما كان قد حققه من اصلاحات ، وما كان يتمتع به من شعبية . أما محمود فلم يكن قد تجاوز بعد العشرين من عمره ، وما كان ليستطيع التطلع الى خلافة السلطان فى حياة مصطفى ، الا انه كان قد أضحى شابا قويا ، شديد الثقة بنفسه ، يشغف بكل ما كانت ترويه له أمه عن فرنسا !

وفيما بين عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٦ ، قام السلطان سليم – بايعاز من « ايميه » – بعدة خطوات أخرى تستهدف التقرب من فرنسا ، فقد كان أشد ما يكون حاجة الى حليف قوى يعضده ويسانده ، اذ كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى سائر أنحاء البلاد ، وكانت روسيا تتربص بتركيا ، وتترقب أول فرصة للانقضاض عليها ! واغتنمت بريطانيا أيضا ضعف تركيا فأرسلت أسطولها الى القسطنطينية . واذ ذاك استغاث سليم بنابليون الذى بادر بايفاد أحد ضباطه الموثوق بهم كمبعوث خاص لدى الباب العالى . وبلغ « الجنرال سباستيانى » القسطنطينية فى ١٠ أغسطس عام ١٨٠٦ ، واسرع السلطان الى استقباله فى قصره ، وما لبث أن تم الاتفاق بينهما على أن يقوم ضباط فرنسيون بتسليح القوات التركية ، وأن يتولوا قيادة سفن تركيا الحربية !

وكان عدد كبير من السفن الانجليزية قد وصل الى الدردنيل ، وراح الاميرال الانجليزى يهدد باطلاق نيران مدافعه ، ما لم يغادر « سباستيانى » تركيا ويعود الى بلاده فورا ! **وكاد سليم أن يضعف ، ويذعن للتهديد ، لولا أن « ايميه » اخذت تشد من أزره ، وتقوى من عزيمته ، الى ان اقنعته برفض التفاوض مع الانجليز حتى ينسحب أسطولهم من الدردنيل !**

ولم يضع الاتراك وقتهم ، بل راحوا يضمون صفوفهم ، وينظمون قواتهم تأهبا لخوض المعركة المنتظرة ضد الانجليز . واستحالت القسطنطينية كلها الى قلعة حربية حقيقية تعج بالاسلحة والقوات التى كان يقف على رأسها الجنرال سباستيانى . وعلى حين غرة ، وبينما كان الجميع يترقبون

انطلاق الشرارة الاولى ، اذ بالرياح التى تدفع السفن الانجليزية تغير اتجاهها ، فتوقف تقدم السفن ، وتجعلها ترابط فى مكانها لا تستطيع حراكا ، لبضعة أيام ! وكانت هذه الايام كافية لتمكين سباستيانى من تنظيم قواته وتعزيز استحكاماته ، حتى اذا ما عادت الرياح تهب فى اتجاهها الاول ، تبين لقائد الاسطول الانجليزى أن من الاسلم له ولاسطوله الانسحاب من الميدان ، فغادر الاسطول مياه القسطنطينية عائدا الى انجلترا !!

وبذلك كسبت ((ايميه)) الجولة الاولى من المعركة !

من القصر .. الى السجن !

• **على** أن القدر الذى انقذ تركيا من الاسطول الانجليزى ، ما لبث أن تدخل من جديد ، فقلب الامور — هذه المرة — رأسا على عقب : فقد أصيبت زوجة سباستيانى بمرض خطير سرعان ما أدى الى وفاتها . واذ ذاك تملك سباستيانى حزن شديد جعله يقرر مغادرة القسطنطينية ، والعودة الى بلاده !

وما أن رحل القائد الفرنسى عن تركيا ، حتى أدرك الانكشاريون أن الساعة التى طالما ترقبوها قد حانت . فانطلقوا ينشرون الارهاب فى ربوع البلاد ، ويبثون الفوضى فى كل مكان بدعوى القضاء على النفوذ الفرنسى الذى كان يخضع له السلطان ! ولم ينقض طويل وقت حتى تمكنوا من الاجهاز على فرقة ((النظام الجديد)) التابعة للسلطان ، **ثم استولوا على العرش ، وعزلوا ((سليم)) ، ونصبوا مصطفى سلطانا بدلا منه ! أما ((ايميه)) ووالدها محمود فقد ألقى بهما فى السجن ، بينما لقى أنصارهما جميعا حتفهم !**

وفيما كان مصطفى وأنصاره الانكشاريون منصرفين الى مطاردة أعدائهم وتصفيتهم ، كان ثمة رجل يضع – فى غفلة عنهم – خطة للقضاء عليهم والانتقام منهم ! اذ ما أن علم « براختار » حاكم « رشتك » – وهى مقاطعة على الدانوب – بما انتهى اليه مصير سيده السلطان سليم ، حتى جهز جيشا من الالبانيين ، واتجه به صوب القسطنطينية ، لانقاذه .. لكنه ما لبث أن علم عند وصوله الى الحدود التركية ان الانكشاريين قد قتلوا « سليم » ، وان « ايميه » ومحمود استطاعا الفرار من قبضتهم . فأسرع « براختار » الى قصر السلطان وحاصره بقواته . ثم انضم اليه محمود ، **واستطاعوا بعد قتال لم يدم طويلا أن يهزموا الانكشاريين ، ويقبضوا على مصطفى .. وأطلقت المدافع فى تلك الليلة احتفالا بالنصر ، وأعلن محمود سلطانا على تركيا ، وعين « براختار » رئيسا للوزراء .**

وبذلك صارت « ايميه » والدة للسلطان الجديد ، وأضحت خريجة دير الراهبات التى كانت ترتعد خوفا حينما قادها زعيم القراصنة منذ سنوات الى قصر الحريم .. أضحت سيدة اولئك الذين حسبوا ان فى وسعهم التحكم فيها واستعبادها . واذ ذاك طنت فى أذنها مرة أخرى كلمات الساحرة العجوز : **« سوف يحكم ابنك حكما مجيدا ، بيد أن عرشه سيكون ملطخا بدم سلفه .. » !**

تنتقم لابنة عمها « جوزفين » ، من مطلقها نابليون !

• **واذا** كانت «ايميه» وابنها السلطان قد حسبا انهما تخلصا نهائيا من أعدائهما الانكشاريين ، فقد كانا ولا ريب واهمين .

فان السياسة التى انتهجها محمود فى الداخل ما كانت لتحظى برضى الشعب ، وسرعان ما أثارت سخطه وتذمره . واغتنم الانكشاريون الفرصة لمعاودة نشاطهم الارهابى القديم . وكان مصطفى هو الرأس المدبرة لمؤامراتهم !.. على ان محمود لم يكن بعد فى مركز يسمح له بالتخلص منهم نهائيا ، فآثر ارجاء ضربته القاضية التى ستبيدهم عن آخرهم ، ريثما تتدعم مكانته ويتوطد سلطانه !

وقد حذا محمود حذو « سليم » فيما انتهجه من سياسة خارجية ، فراح — منذ مجيئه الى الحكم — يسعى للتقرب من فرنسا ، وكسب صداقتها وتحالفها . بيد أن الحكام الفرنسيين ما كانوا ليجشموا أنفسهم مشقة الرد على تلك المحاولات . فقد كان نابليون يعتبر تركيا دولة لا تصلح الا لتكون ولاية تابعة لفرنسا . وفضلا عن ذلك ، فقد كانت ثمة مشكلتان عويصتان تواجهانه : وهما طلاقه من جوزفين ، ووضع خطط حملته على روسيا . وفى يوم ١٦ ديسمبر عام ١٨٠٩ ، أعلن نابليون طلاقه من جوزفين ، وزواجه من مارى لويز . وما أن وصل النبأ الى القسطنطينية حتى أحدث رد فعل سيئا للغاية فى نفس كل من « ايميه » وولدها محمود . ومع أنه لم يقدر « لايميه » ان ترى قط ابنة عمها منذ أن افترقتا فى « المارتينيك » ، الا أنها حرصت على أن تبث فى ابنها حب الامبراطورة الفرنسية وتبجيلها . وقد شعر محمود بكراهية شديدة نحو نابليون لما فعله بجوزفين ، وضاعفت من حدة هذه الكراهية ذكرى تلك الحملة التى كان نابليون قد قام بها على مصر . واذ ذاك عول السلطان محمود على الوقوف فى وجه

الامبراطور الفرنسي وحكومته !

وقد رأى السفير البريطاني فى القسطنطينية فى الجفوة التى دبت بين تركيا وفرنسا فرصة يمكن استغلالها لمصلحة انجلترا . فمازال بالسلطان حتى اقنعه بعقد الصلح مع الروس الذين كانوا يخوضون حربا طاحنة مع تركيا حول مناطق (بسارابيا) ، و (مولدافيا) وموانىء الدانوب . ولعل عقد صلح مع روسيا ، والنزول لها عن تلك المناطق فى وقت كان سيف فرنسا مسلطا فيه على رقبتها ، قد بدا ولا ريب ضربا من الجنون ، اذ لو أن تركيا ركزت كل قواتها وحملاتها ضد روسيا لكتب لها النصر فى النهاية . على أن السلطان محمود لم يكن مندفعا مع ذلك فى قراره ، فان تركيا لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تنتصر ، فضلا عن ان معاهدة الصلح كانت خليقة بانقاذ الالوف من الارواح . على أن وراء هذه الدوافع ، كان يكمن باعث آخر خفى : فقد كان محمود ينتقم لنفسه ولامه — ابنة عم جوزفين ! — من نابليون ، ويصفى حسابا قديما لهما مع امبراطور فرنسا !

وهكذا ، فى يوم ٢٨ مايو عام ١٨١٢ ، أى بعد شهر من غزو نابليون لروسيا ، وقع السلطان محمود معاهدة بوخارست ! وقد أطلقت هذه المعاهدة الجيش الروسى من الدانوب ، فاستطاع أن يتجه الى الشمال ضد نابليون الذى كان يرابط بجيوشه على أبواب موسكو ! فكانت هذه ضربة قاصمة ، مصدرها طيف بعيد . كانت « رسالة » أخرى قد بعث بها « شبح » فتاة (المارتينيك) ! .. وفى شهر ديسمبر التالى ، حلت الكارثة بالقوات الفرنسية أثناء اجتيازها بحيرة (بريزينا) فى روسيا ،

ولقى عدد كبير من الرجال حتفهم . فاضطر نابليون الى الانسحاب عائدا الى باريس، يجر وراءه اذيال الخيبة والهزيمة !

وراحت ((ايميه)) تتطلع الى الافق البعيد ، وأخذت تتساءل : عما اذا كانت ابنة عمها جوزفين قد فهمت ((رسالتها)) !

٣٣ عاما حافلة بالامجاد .. ولكن !

• **وتابع** محمود تنفيذ اصلاحاته الداخلية للنهوض بمستوى شعبه . وكانت أمه تسانده ، وتعاونه فى حل كل ما كان يصادفه من مشكلات . بيد انهما كانا يدركان أنه ما من اصلاح سيقدر له البقاء طالما أن الانكشاريين يعيشون فى البلاد فوضى



وفسادا .. ومن هنا ، كان تحقيق اى تقدم حقيقى مرهونا بقيام جيش جديد مزود بأسلحة حديثة ، ولا يضم الانكشاريين بين صفوفه . ومضى السلطان ووالدته يعدان سرا تكوين الجيش الجديد الذى سيتيح لهما يوما تحقيق ما يجيش فى صدريهما من آمال !

على أنه قبل ان يحل ذلك اليوم ، كان السلطان قد فقد ملهمة حياته : ففى عام ١٨١٧، ماتت فتاة المارتينيك : « ايميه دوبوك دى ريفرى » ، التى قدر لها أن تغير وجه تركيا ومعالمها ، بعد أن عاشت فى قصر السلطان نحو ثلاثة وثلاثين عاما !..
وعلى نحو ما تنبأت لها به العرافة العجوز ، حققت — فى غضون تلك الحقبة الطويلة — أعظم الانتصارات ، وعرفت أروع الامجاد ، بيد أنه فى عين اللحظة التى بدأت فيها اصلاحات محمود تبلغ أغراضها ، وبدا أنها قد ظفرت بالسعادة ، قدر لكل شىء ان يتبدد .. ففقدت حياتها !

وقد أحاط محمود قبر أمه بكل مظاهر الابهة والعظمة الجديرة بأم سلطان تركيا . غير أنه كان يواجه فريضة أخرى يتعين عليه اداؤها نحوها !.. ففى عام ١٨٢٦ ، أى بعد تسعة أعوام من وفاة والدته « ايميه » ، **قام السلطان محمود بسحق أعدائه الانكشاريين سحقا مبينا لا قومة لهم بعده ، وأثبت به أنه سيد البلاد المطلق الذى لا ينازعه فى سلطانه منازع !**

لقد كانت فريضة رهيبة .. تلك التى أداها السلطان محمود نحو أمه « ايميه » .. كانت آخر رسالة بعث بها « شبحها » الي ذلك العالم الغربي الذي انحدر منه ، وأخلص له !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمي

(التمثيلي - والغنائي)

عزيزي القارىء ..

قدمت لك في هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب ، نزاهة الحكم ، سلاح المرأة ، فولبون ، جيوكندا ، كلام الناس ، مدرسة الفضائح ، سيرانو دي برجراك ، لعبة الحب والموت ، مروحة الليدي وندرمير ، فاوست ، في سبيل الحب ، الام ، الملك يلهو ، الجنس الآلي ، هرناني ، ترويض الشرة ، الحياة نفاق ، أغلال الحب ، المنافق ، بيت الليل ، عاقوهم الحب ، زوج مثالي ، سالومي ، مدرسة الارامل ، برهان الحب ، اوديب ، كيف نقع في حبائلهن ، حلاق أشبيلية ، الهاربة من الفضيحة ، رجل الاقدار ، جوديث ، نيكراسوف ، أنباء مثيرة ، أندروماك ، جندي محترف ، الشقيقات الثلاث ، الهاربة من السجن .. الخ

واليوم ، أقدم لك مسرحية من الادب الفرنسي المعاصر ،


LIBERTÉ
PROVISOIRE
par
MICHEL DURAN
حريّة
.. موقتة!
كوميديا ذات أربعة فصول
مثلت على مسرح "سان جورج" بباريس
للكاتب الفرنسي المعاصر:
ميشيل دوران

مسرحية .. غنية بالافكار !

عندما تفرغ من قراءة هذه المسرحية الممتعة ، سوف تسائل نفسك : ما هى هذه « الحرية المؤقتة » التى جعلها المؤلف عنوانا لمسرحيته ؟.

ولكن قبل أن نشغل أنفسنا بهذا التساؤل ، دعنى أقدم اليك أبطال القصة ، حسب ترتيب ظهورهم على المسرح ، فى هذا المسكن الأنيق بالطابق الأعلى من احدى عمارات باريس الحديثة الشاهقة :

فأما « مادلين » ربة المسكن ، فهى حسناء تعيش بمفردها ، حياة طليقة ، فتعطى مفتاح مسكنها كل حين لعاشق جديد ، وتجمع حولها على الدوام « شلة » من المعجبين المتنافسين على الحظوة بحبها ، أو الحظوة .. بالمفتاح !

وأما « بارنو » ، الذى يأبى أن تفض السهرة فينصرف من مجلسها ، رغم أن الساعة قد جاوزت الثالثة صباحا ، فهو رجل أعمال كهل ، ثرى ، يطاردها بحبه ويبثها هواه ، دون أن يظفر منها بطائل ! ذلك انه رجل تعوزه الرقة والمرونة ، فهو يعرف كيف يكسب الملايين ، بكدحه وحزمه واصراره ، ولكنه

لا يعرف كيف يكسب قلب المرأة ! •• ورغم ملاحقته لمادلين ، وعروض الترف والمال التى يغريها بها ، فانها تركل عروضه فى حزم ، وتصدمه بهذا التحدى : « اننى لست غنية •• ولكننى من سعة الحال بحيث أحتفظ بحرية التصرف فى جسدى • وانى لأعطيه لمن يروقنى ، بلا مقابل ، وأرفض أن «أبيعك» اياه ! »

ويرد التحدى بمثله : « اعترفى اذن بأن لك عاشقا ! » •• فتجيبه فى اصرار : « ليس هذا من شأنك ، على كل حال لست أنت عاشقى ، ولن تكون ! •• لماذا لا تقنع بأن تكون صديقى ? »

فتعاوده غطرسته ، وجهله بطبائع النساء ، ويصدمها بهذا القول : « لا أريد أن أكون صديقك ، وانما أريد أن أكون سيدك • أنا اذا لم أحببك أبغضتك • انى أريدك ، ولسوف أنالك ! »

فلندعهما فى هذا الصراع ، ولنتعرف الى البطل الثالث من أبطال القصة الرئيسيين • انه يدعى « جيرار » ، وهو فتى من أصحاب الرأى ، مؤمن بالانسانية والاخاء ، كافر بالحرب والقتال • وقد عاقبته السلطات الفرنسية على عقيدته هذه بأن أرسلته يؤدى خدمته العسكرية جنديا فى صفوف الجيش الذي يحارب الوطنيين العرب فى المغرب ،

وهناك احتك بهم فأعجب بشجاعتهم وتضحياتهم ، ولمس وحشية العمليات العسكرية الفرنسية ، فجاهر ذات يوم بثنائه على العدو ، واستهجانه لفظائع جيش الاحتلال ، فقدموه الى مجلس تأديب ، ولكنه آثر الهروب .. ومنذ ذلك الحين صارت حياته فرارا متواصلا من مطاردة السلطات ، وهو الآن لاجيء يلتمس فى مسكن « مادلين » مخبأ له من مطاردة رجال الشرطة .. لكن الحسناء ترميه بالنذالة وخيانة الوطن ، وتتمادى فى تعبيره بما اقترف من أوزار ، فلا يسعه الا أن يرد لها الصاع صاعين ، فيوبخها بدوره ويعيرها بعشاقها الذين يتسللون الى مسكنها خلسة ، وآخرهم الفتى العاطل « هولان » ، ويتخذ من هذا التخفى دليلا على أن ما تفعله « عار تخجلين منه وتتسترين عليه ! » .. لكنها تجيبه : « ان امرأة فى مثل منزلتى الاجتماعية ينبغى أن ترعى أوضاعا وتقاليد معينة »

— تزوجا اذن ، ففى مجتمعكما يتزوج الناس !

— انى أحرص على حريتى !

.. وهكذا نرى من سياق المسرحية الرائع أن الشرف ، والوطنية ، وسائر القيم والمقدسات ، لها مقاييس تختلف باختلاف الزاوية التى ننظر اليها منها .. ففرار

الشاب من مهمة قتل العرب الأبرياء ، هو فى نظره شجاعة ، وايمان بالانسانية والاخاء ، وكفر بالحرب والقتال .. لكنه فى نظر القانون والنظام العام خيانة ، وجبن ونذالة !

ومسلك الحسناء التى يتعاقب على مسكنها العشاق هو — فى نظر الفتى — عار ، وخسة ، ونذالة .. لكنه فى نظرها ونظر بيئتها « حرص على حريتها » ، و « مراعاة لأوضاع المجتمع وتقاليده » !

وهكذا ، فى كل عبارة من حوار القصة اللامع ، نرى أفكارا تنبثق ، ونظريات تتصارع ، وسخرية لاذعة من النفاق الذى يسود المجتمع ويفرض طابعه على كل القيم والمبادىء التى يطالب الناس بالتزامها !

وأعود من حيث بدأت ، فأتساءل : ما هى « الحرية المؤقتة » التى جعلها المؤلف عنوانا لمسرحيته ؟ : أهى الحرية التى وجدها « جيرار » فى كنف « مادلين » ، الحرية من الخوف ، أو من مطاردة البوليس ؟

أم هى الحرية التى وجدتها « مادلين » فى كنفه ، وفى حبه .. الحرية من مطاردة عشاقها لها — وفى مقدمتهم « بارنو » — أو الحرية من حياة المجون والتفاهة التى كانت تحياها فى مجتمعها العقيم ، قبل أن تلتقى به ، والتى لن تلبث أن تعود اليها — على نحو

آخر – حين تقبل أن تكبل نفسها بأبغض الأغلال اليها .. من أجل اسعاد محبوبها ! ؟

ولكن ، هيا بنا نهرع الى مسرح « سان جورج » بباريس ، قبل أن ترفع الستار ..

حرية .. مؤقتة !

تلخيص : الدكتور أنور لوقا

المدرس بكلية آداب عين شمس

– ١ –

• **ترتفع** ستارة مسرح « سان جورج » فى باريس عن غرفة استقبال حديثة الاثاث ، أنيقة ، فى مسكن الحسناء **«مادلين»** . ونعلم اننا صعدنا الى الطابق الاعلى من عمارة شاهقة ، اذ ينفتح فى أقصى الغرفة باب يؤدى الى الشرفة . وفى الخارج ظلام حالك ، فقد تقدم الليل ، وبلغت الساعة الثالثة صباحا . على أن جو الغرفة مازال مشحونا بدخان التبغ ، ومازلنا نرى – فى ختام سهرة حافلة – نفرا من المدعوين ، حول ربة البيت الحسناء ..

هناك **« بارنو »** – وهو من كبار رجال الاعمال – وقد انتبذ ركنا من الغرفة ، وجلس وحده صامتا ، على أريكة وثيرة ، بينما انطلق **« هولان »** يروى فى مرح صبيانى – يناقض جد « بارنو » – آخر ما سمع من نكات العاصمة والاقاليم ، يريد بذلك أن يطيل السهرة ، ويحاول أن يغتصب ضحك رفاقه .

وهو يلقى الى « بارنو » بين الفينة والاخرى نظرة شزراء .
وفجأة نسمع فى الخارج صفير رجال الشرطة ، فيخرج الرفاق المرحون الى الشرفة ليستطلعوا الامر . ويتضاعف الصفير ويعلو . **ان سيارة الشرطة تتعقب احدى سيارات الاجرة ، وتلحق بها قرب مدخل العمارة ، ثم تدوى طلقتان ناريتان !.. ولكن هل وثب حقا من سيارة الاجرة شخص اختفى فى الظلام ، كما تزعم « جانين » وهى تطل وتصف المشهد فى حماسة شديدة ؟** لقد أطل مثلها « هولان » و « فوجاريه » ، غير أنهما لم يبصرا ما أبصرت ، ويتهمانها بأنها تستوحى خيالها ، وبأنها من المفرطين فى ارتياد دور السينما والولع بروايات المغامرات !.. ومهما يكن من شىء ، فلا شك فى أن الاشجار التى تحف بالشارع قد حجبت ما دار فيه عن أعين أولئك الناظرين من عل .
شخصان لم يندفعا الى الشرفة ولم يستخفهما الاستطلاع : « بارنو » الذى ظل قابعا فى ركنه ، و « مادلين » التى تصب كأسا من الشمبانيا وتشربها كأنها تريد أن تبعد عن نفسها هماً أو خوفا يساورها !
ويعود الرفاق المرحون ، وينظر « هولان » الى ساعته ، ويقترح أن ينصرفوا . بيد أن « بارنو » يود أن يمكث من دونهم ، وألا يفارق « مادلين » ، وهو لذلك يسألها كوبا من الماء البارد ، فيسرع « هولان » الى المطبخ ليأتى له – دونها – بكوب الماء ، مما يزيد من سخط « بارنو » ، الذى يقول متبرما ، ساخرا :

بارنو : انه لطيف ، هذا الفتى !

مادلين : جدا .

بارنو : من المؤسف انه شديد الغباء .

فوجاريه : أنا لا أرى رأيك .

بارنو : ماذا يفعل فى حياته ؟ أتستطيعين أن تخبروني ؟

جانين : لا حاجة به الى العمل ، فهو غنى .

بارنو : اننى أغنى منه بمراحل ، ومع ذلك فاننى أعمل .

فوجاريه : واذا منعوك من العمل ، نغص الملل عيشك ..

بارنو : نعم ، أعترف بهذا .

فوجاريه : ذلك أنك رجل آلى ، تسيطر عليك العادة ، وينقصك الخيال !

بارنو : قلها لى بصراحة يا فوجاريه : انك تعتبرنى غبياً !

فوجاريه : انك لست شديد الذكاء .

بارنو : غير أنى ، أيها الابله ، قد أسست مصنعا للسيارات ، وهناك طراز من السيارات يحمل اسمى ، ويشتغل عندى الآن عشرون ألف عامل ، أنا الذى بدأت صفر اليدين ولم أعتمد على غير عزيمتى .. من حسن حظ هذا الصغير « هولان » أن كان له أب من نوعى !

وتثنى « مادلين » على « هولان » ، فيلاحظ « بارنو » أنها دأبت على معارضته فى كل ما يستحسن أو يستهجن :

بارنو : أتحبين « هولان » ؟

مادلين : انه يروقنى .

بارنو : وفوجاريه ؟

مادلين : انى أعتز به كصديق مهذب دمث الاخلاق .

بارنو : طريقته فى السخرية من الناس تسوؤنى منه ، ومجونه ينفرنى .

فينسحب « فوجاريه » فى لباقة لاذعة ، ويلحق بصاحبه

« هولان » فى المطبخ ، ليضيف الى عيوب « بارنو » انه نمام مغتاب ..

قد يكون « بارنو » رجلا قوى الارادة ، شديد البأس ، مسموع الكلمة فى دنيا المال والاعمال ، ولكنه رجل تعوزه الرقة والمرونة . **وقد يعرف كيف يكسب الملايين بكدحه وحزمه واصراره ، ولكنه لا يعرف كيف يكسب قلب امرأة !**
ها هو ذا ينفرد بمادلين فلا يستلينها بحديث عذب ، ولا يشرح لها ما يجد فى جمالها من سحر جذاب ، وما يضيق به صدره من شجون ملحة .. وانما هو يلزمها على مسلكها ، ويعنفها ، ويتحداها بأغلظ التهديد والوعيد ، واذ لا يجد منها – ازاء تجهمه – الا نفورا وصدا ، يستدرك أمره ، ويخفف شيئا من حدة لهجته :

بارنو : انت لا تفهميننى . اننى رجل بسيط جدا . اننى أحبك ، وانت لا تحبيننى . غير أنى غنى قادر ، وثروتك متواضعة جدا ، وأنا أقدم لك ثروتى . انك تقيمين هنا مع خادم واحدة ، فى هذا المسكن الصغير الذى لا يليق بك ، على حين تستطيعين معى أن تعيشى عيشة مترفة ، ولك منى ماتريدين !

.. الى هذا الحد قد تقبل « مادلين » ما يعرضه ، فهى لا تكره حياة الترف ، ولكنها لا تقبل أن تتمشى معه الى ما هو أبعد من ذلك .. لا تقبل أن تهب نفسها لهذا الرجل !

– لماذا ؟ اننى لست دميما . وقد أحبتنى عدة نساء من قبلك . منذ عشر سنوات مضت – ولم أكن اذ ذاك الا صاحب مصنع صغير – كانت لى عشيقة تهيم بى . وما أرى أن ملامحى قد تغيرت كثيرا منذ ذلك العهد ..

ـ انك لست دميما ، بل ولا بأس بوسامتك .

ـ اذن ؟

ـ ان لى مع ذلك ذوقى ولست أغيره . نعم ، اننى لست غنية جدا ، **ولكننى من سعة الحال بحيث احتفظ بحرية التصرف فى جسدى . وانى لاعطيه لمن يروقنى بلا مقابل ، وأرفض أن أبيعك اياه !**

ـ اعترفى اذن بأن لك عاشقا !

ـ ليس هذا من شأنك .

ـ أهو « فوجاريه » ؟

فتهز « مادلين » كتفيها ..

ـ أهو « هولان » ؟

ـ نعم ، انه « هولان » .

فينكر « بارنو » ما يسمع ، مستخفا بشخصية ذلك الفتى . أما هى ، فلا تحيد عن موقفها :

ـ على كل حال لست أنت عاشقى ، ولن تكون عاشقى .

ـ ما زلت أصر على وجهة نظرى .

ـ ولماذا لا تقنع بأن تكون صديقى ؟

ـ لا أريد أن أكون صديقك ، وانما أريد أن أكون سيدك . أنا اذا لم أحببك ، أبغضتك . انى اريدك ، ولسوف انالك !.. سأبذل دون ذلك الوقت والثمن .

ـ أخشى أن تنقصك الحيلة .

ـ مهما تكن الظروف ، اذا لم أفز بك ، فلن ينالك غيرى !

ويشعر الرجل القوى بمرارة الهزيمة أمام المرأة الضعيفة ، فيمتلىء حنقا ، ويستأنف الارهاب والانذار ، متحديا بالويل ذلك الذى قد تجرؤ على ايثاره . ويعود «هولان» و «فوجاريه» من المطبخ ، فيسمعان العبارات النارية الاخيرة ، ويقترحان — فضا للنزاع المحتدم — أن ينصرفوا جميعا ويتركوا «مادلين» وحدها لتستريح . ولكن «بارنو» يرفض أن ينصرف معهم .. ويقطع المناقشة صوت جرس الباب يدق دقات خفيفة



— لا أريد ان اكون صديقك ، وانما اريد ان اكون سيدك . انا اذا لم احببك ،ابغضتك انى اريدك ، ولسوف انالك !

مترفقة – وان كانت سريعة متعجلة – فيمضى « هولان » ليستطلع من الطارق ، وبعد حديث قصير خافت عند الباب ، يعود قائلا :

– انه مفتش البوليس .

ويدخل المفتش المذكور ، وهو فتى حسن الهندام ، مهذب ، فيحيى الجميع سائلا العفو اذ يزعجهم فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، مطمئنا ربة البيت ، فقد أقبل يتعقب الرجل الذى وثب من سيارة الاجرة ودخل من باب العمارة حيث اختفى . انه يريد أن يعاين منافذ البيت العليا ، فيستأذن « مادلين » فى أن يصعد من شرفتها الى السطح ، ليتحقق من عدم اتصال هذه الدار بالدور المجاورة . واذ يتسلق المفتش الى سطح المنزل ، يسيطر الخوف على أعصاب الجميع ، فهم يخشون أن يلتقى فوقهم بالمجرم الهارب ويصرع أحدهما الآخر رميا بالرصاص ..

على أنه لا يلبث حتى يهبط ، بادى القلق ، بعد أن لاحظ أن المنزل يعلو بمقدار ثلاثة طوابق على كل المنازل المجاورة . ويسأل « مادلين » أن تقوده الى الباب المؤدى الى سلم الخدم ، ومنه يخرج مستأنفا بحثه ، بعد أن يحيى الضيوف ويشكر ربة البيت .

ولا يكاد الرفاق يعلقون بعبارات قصيرة على الحادث الغامض وعلى هذا المفتش الذكى اللبق ، حتى يقرع الباب قرعا متصلا عنيفا . ويمضى «هولان» ليفتح ، يصحبه «فوجاريه» – ليغيثه اذا كان القادم فى هذه المرة هو المجرم الهارب – غير أننا نسمع صوتا غليظا يقول :

— بوليس !

ويدخل رجلان من رجال الشرطة ، فى زيهما الرسمى المعروف ، ويقول أحدهما فى لهجة عامية :

— العفو يا سادة ! هناك رجل على السطح نبحث عنه ، فمن أين نصعد ؟

مادلين : من هنا . لقد صعد زميلكما منذ لحظة وعاين السطح .

رجل البوليس : أى زميل ؟

مادلين : لا أعرف اسمه . انه يتعقب مثلكما مجرما اختبأ فى العمارة . لقد صعد فوق السطح ولم يجد شيئا .

ويستفهم رجل البوليس عن أوصاف ذلك « الزميل » ، فاذا بها أوصاف المجـرم الهارب ! ويستنكر الجميع جـرأة « المفتش » المزعوم . ويهرع رجلا الشرطة نحو السطح لالقاء القبض عليه ، ولكن « مادلين » تشرح لهما أنه نزل من سلم الخدم ، فينزل أحدهما من نفس الطريق ، ليتعرف منافذ البيت وليأمر مجموعة الشرطة المرابطة بحراسة العمارة من جميع الجهات حتى يطلع النهار . فما من شك فى أن الهارب قابع فى ركن من أركان هذه العمارة الشاهقة ، ولا سبيل الى التنقيب عنه فى مكامنها دون ايقاظ جميع السكان .

وينتهز « بارنو » فرصة الخطر الملم ، فيعرض خدماته على «مادلين» ، أى أن يظل معها بقية الليل ليحميها من أى طارىء ، ولكن رجل البوليس يؤمن الحسناء بأن المجرم لن يتحرك من مكمنه لانه يعلم أن الشرطة تحتل المنزل . وتعلن هى أنها ليست خائفـة . وينصرف الجميع ، بعـد أن يحكموا اغلاق النوافذ ، واعدين « مادلين » بأن يتصلوا بها فى اليوم التالى ،

أما هى فتهمس لـ « هولان » قبل أن يخرج :

ـ هل معك المفتاح ؟

ـ نعم . ولن أصطحب أحدا فى سيارتى ، وانما سأضعها فى « الجاراج » المجاور وأعود . انى أحبك .

وتقفل « مادلين » بابها وهى تردد أغنية مرحة ، ثم تتجه الى المرآة فتقف أمامها لحظة تصفف شعرها ، ثم تنطلق الى الداخل ونسمع الماء يتدفق فى الحمام . **وهنا يفتح باب غرفة الانتظار فى حذر ، ويظهر منه مفتش البوليس المزعوم ، شاهرا مسدسا فى يمناه** . ويدير الفتى بصره فيفحص كل شىء حوله . غير أن جرس التليفون يدق فجأة ، فيسرع فى براعة الى الاختفاء وراء ستائر الشرفة . وينقطع خرير الماء فى الحمام ، وتقبل « مادلين » فى ثوب منزلى خفيف أنيق وتجيب السائل . انه « بارنو » ، وهو لم ينس شيئا ، وانما بادر الى مخاطبتها من أول مقهى مفتوح صادفه فى الطريق ليطمئنها ويطمئن عليها ، وليذكر لها بوجه خاص ان رئيس القوة الساهرة قد أكد له أن المجرم قد التجأ الى كهف المنزل وأن الشرطة فى الصباح ستجده هناك قابعا كالارنب .. وتقتضب « مادلين » الحديث لتفرغ لاستحمامها ، وتتوارى عنا .

ويظهر الفتى فينقل جهاز التليفون من مكانه الى أقصى أطراف الغرفة . ويلمح على المائدة كأسا مازالت مترعة بالشمبانيا فيشربها جرعة واحدة ، ولكنه اذ يضعها تصطدم بكأس أخرى فارغة ، ويرن صوت البلور ، فيخشى أن يفتضح أمره ، ويعتريه الارتباك ، وهو يلوح بالمسدس فى يده . أما « مادلين » ، فتظن أنه « هولان » قد عاد ، ونسمع صوتها من الداخل تخاطبه :

ـ أهو انت يا حبيبى ؟ ما أسرع ما عدت !... لا تدخل عندى ، انى خارجة اليك بعد لحظة .

ويسرع الفتى المجهول فيقف قبالة باب الغرفة التى ستخرج منها « مادلين » ، شاهرا مسدسه دائما . **ولا يطول تربصه . فها هى ذى تبدو ، وها هو ذا ـ واضعا اصبعا على شفتيها ـ يأمرها بالصمت، فتكتم صيحة كادت تطلقها، وتسأله مذعورة لاهثة :**

ـ ماذا تريد ؟

ـ الصمت . لا تخافى . انى لا أريد بك شرا . اجلسى .

فتجلس ، وتدير عينيها باحثة عن جهاز التليفون ، فيشرح لها الفتى أنه تعمد ابعاده عنها حتى يتفاهما . ولكنه مازال شديد القرب منها ، يهددها بمسدسه . فتعده ـ حسما الموقف ـ بألا تستغيث، وتشير الى الخزانة التى أودعتها نقودها وجواهرها داعية اياه الى أن يأخذ ما يشاء وينصرف دون أن يؤذيها .

ـ محال !

ـ فماذا تريد بى ؟

ـ صبرا ! أمامنا الليل كله لنتحدث فى هذا الموضوع .

ويصارحها بأنه يلتمس لديها مخبأ يلوذ به من رجال الشرطة الذين حاصروا الدار ، وبأنه لن يتردد فى استخدام العنف لارغامها على ايوائه ، لانه اذا وقع فى قبضة الشرطة فمصيره السجن أو الاشغال الشاقة ، وتخفيه لديها اذن هو آخر أمل يتشبث به .

ـ انك رجل حقير !

ـ ما أتيت الى هنا لكى أحظى بتقديرك .. أتسمحين لى بتناول شيء من الشمبانيا ؟ لقد أججت عطشي أحداث الليلة .

وأظن أنك تعانين مثل هذا العطش . انني أدرى منك بذلك . لا ترفضى هذه الكأس .

ولا يكاد يشرب نخب ربة البيت حتى يسمع صوت مفتاح يدور فى قفل الباب الخارجى . وهنا ترتسم على وجه «مادلين» علائم الارتياح . **ولكن الفتى يصوب اليها مسدسه بيمناه ، ويكمم فمها بيسراه ، وهو يعتذر اليها :**

ـ آسف ! ولكن هذا أدعى للسلامة .. اطمئنى ، فانه لن يدخل . لقد وضعت فى قفل الباب مفتاحا من الداخل .

وعبثا يحاول « هولان » أن يفتح الباب ، فيدق الجرس ، وما من مجيب .. ثم ينادى : « مادلين ! » ، دون جدوى .. فيضطر أخيرا الى الانصراف . واذ ينزاح ذلك الخطر ، يبتعد الفتى المجهول عن ربة البيت ويخاطبها باحترام مكررا اعتذاره . ولكنها تحتج :

ـ أرجوك ، لا تتكلف الرقة ما دمت فظا غليظا ! انك جبان ، تشعر هنا بقوتك وتستغل ضعفى .

ـ أؤكد لك اننى فى العادة رجل مؤدب مهذب .

ـ وشريف ، بلا شك !

ـ نعم ، من وجهة نظرى . فليس فى خاطرى ما ألوم نفسى عليه .

ـ أولا تلوم نفسك على وجودك هنا ؟

ـ بالحق لا ، لان ذلك أتاح لى متعة التعرف بك .

ـ اذا كنت بريئا فلماذا ترهب الناس ؟

ـ اننى ازاء ضميرى برىء مستريح ، ولست مذنبا الا فى نظر المجتمع .

ونعلم أنه فتى من أصحاب الرأى ، مؤمن بالانسانية والاخاء ،

كافر بالحرب والقتال . **وقد عاقبته السلطات الفرنسية على عقيدته هذه بأن أرسلته يؤدى خدمته العسكرية جنديا فى صفوف الجيش الذى يحارب الوطنيين فى المغرب. وهناك احتك بالوطنيين فأعجب بشجاعتهم وبتضحياتهم ، ولمس وحشية العمليات العسكرية الفرنسية .** وجهر ذات مساء بثنائه على العدو ، وباستهجانه لما يرتكبه جيش الاحتلال من فظائع ، فاحتدم الخلاف بينه وبين رئيسه ، وأسفر الشجار عن تقديمه الى مجلس تأديب ، ولكنه آثر الهروب ، رغم ما أحاط بهروبه من ألوان الهول . ومنذ ذلك الحين ، ما زالت ملاحم الصراع بينه وبين السلطات الغاشمة متصلة قاسية .

وترميه « مادلين » بالخسة والجبن والاجرام، فهى تستخلص أنه فر من مقاتلة العدو ، وخان وطنه ، وزيف أوراقه الرسمية، وها هو ذا طريد العدالة يروغ من رجال الشرطة ليستأسد على سيدة عزلاء !.. وتتمادى فى تعييره بما اقترف من أوزار . فلا يسعه الا أن ينقلب الى الهجوم :

ـ وأنت يا سيدتى ، يا من تدينيننى بمثل هذه الشدة ، أولا يؤنبك ضميرك على شىء ؟

ـ كلا ! لا شىء من هذا القبيل .

ـ فهذا الرجل الذى حاول الآن ان يدخل خلسة ، أليس عاشقك ؟

ـ وماذا بعد ؟

ـ لا يبدو عليك أنك تفتخرين بذلك . انه يحاول أن يدلف اليك بمثل الحذر الذى التزمته فى سبيل الاختباء هنا . فهل تخونين أحدا ؟

ـ كلانا حر طليق ،

ـ **اذن فهو عار تخجلين منه وتتسترين عليه !**

ـ ان امرأة فى مثل منزلتى الاجتماعية ينبغى أن ترعى أوضاعا وتقاليد معينة ... ولكن أمثالك لا يفهمون هذا .

ـ **تزوجا اذن ! ففى مجتمعكما يتزوج الناس .**

ـ انى أحرص على حريتى .

ـ آه ! فهمت ! انك تستخدمين عاشقك لمجرد الوقاية الصحية !

فتستنكر بذاءته ، ولكنه يسترسل :

ـ لو كنت مكانه لما افتخرت بنفسى . **أيكون المرء عاشق حسناء فى مثل جمالك ويستخفى ؟ انى اذا قدر لى ان اختار امرأة ، فلسوف أصطحبها فى نزهاتى قائلا للجميع : « أنظروا .. انها امرأتى ! »**

ـ بل انك لا ينبغى عندئذ أن ترفع صوتك .

ـ لماذا ؟

ـ لئلا تفطن اليك الشرطة .

ـ أوه ! ذلك مجرد افتراض .. فان المرأة التى سأختارها ليست من هذا العالم .

ـ هذا خير لها . فالحياة التى تستطيع أن تقدمها اليها حياة تعسة .

ـ حقا . لقد كتب على أن أعيش وحيدا .

فتسأله « مادلين » وكأنها رفقت به من الوحشة المؤبدة :

ـ وهل أمك على قيد الحياة ؟

ـ لا . من حسن الحظ .

ـ من حسن حظها .

ـ من حسن حظها وحظى ! فلو كانت فى دنيا الاحياء ، لبات أحدنا شقيا : هى ، بما فعلته أنا .. أو أنا بما لم أجرؤ على أن أفعله !

ـ انك لا تأسف اذن على شىء ؟

ـ كلا .

ـ وحياتك كالصيد الطريد ، ألا تتعبك ؟

ـ ان الاحوال لا تتأزم كل يوم بهذه الصورة . فقد أقضى الشهور الكاملة آمنا مطمئنا . وهى حياة لها مزاياها . فلا التزام الا ما يفرضه الحذر . انى أشاطر الجميع حياتهم دون أن أتورط فيها . فلا أنا أدلى بصوتى فى الانتخابات ولا أنا أدفع الضرائب . وهذا ما يصبو اليه الكثيرون ، ولكنهم من الجبن بحيث يعجزون عن تحقيقه .

ـ ان فكرتك عن الشجاعة فكرة غريبة .

ـ احساسى بالشرف احساس مرهف ، شرف العيش انسانا لا كبشا . وهى تربية جديدة ينبغى أن يروض المرء نفسه عليها .

ـ شكرا . لا أريد دروسا ، ولو أنها دروس خصوصية فى المنزل .

ـ انى فى خدمتك متى شئت .

وفجأة يرن جرس التليفون ، فيتنـاول الفتى السماعة ، ويقلد صوت الدليل الآلى الذى يردد : « تغير الرقم الذى تطلبه . تغير الرقم الذى تطلبه » . ورغم اعجاب « مادلين » بسرعة بديهته ، فهى لا ترى فى هذا الرد حلا ، اذ أن مخاطبها لا بد أن يعود الى طلبها ، واذا ساوره القلق عليها ـ وهو يعلم أن فى المنزل مجرما هاربا ـ فقد يحضر شخصيا مستعينا

بالشرطة ! لذلك فهى تعرض على الفتى - بعد أن آنست منه المروءة والنبل ، وبات يثير فى نفسها العطف لا الخوف - أن تجيب السائل بما يطمئنه ويصرفه عن ملاحقتها . ولكى تؤكد للفتى صدق نيتها ، تدعوه الى اخراج مسدسه ..

وهكذا تتمكن من اجابة الهاتف بها . انه « هرلان » يستفسر عن سر بابها المغلق ، فتزعم له أنها كانت قد أوت الى فراشها ونعست بعد أن وضعت فى القفل مفتاحا لتأمن شر المجرم الذى عرف الطريق الى مسكنها ، وتتعلل بأنها متعبة تريد أن تستأنف النوم ، وتضرب لعاشقها موعدا اذا كان الغد .. فى مسكنه هو لا فى مسكنها ..

ويشكرها الفتى المجهول . وتتبسط معه فى الحديث ، فيروى لها ما تجشم من مشقة حتى تمكن من الاختباء لديها . ويأخذها التأثر :

- كل هذه الارادة والعزيمة والجرأة .. تبذلها فى غير موضعها !

- لابد أنك متعبة ، فينبغى الآن أن تستريحى .

- **أتظن أننى أستطيع أن أنام ومعى فى البيت رجل ؟**

- ألا تثقين بى ؟

- بلى . ولكن ..

فيقدم اليها مسدسه قائلا :

- خذى ! ليس معى سواه .

وتقبض « مادلين » على المسدس ، وهى تقول :

- واذا استغثت الآن ؟

- **كلا ! انى واثق من انك لن تفعلى** . هيا استريحى فى غرفتك . وأرجو أن تأذنى لى بأن أستلقى هنا على هذه الاريكة .

واذ تهم بدخول غرفتها ، يخاطبها الفتى من مكانه باحترام :

ــ سيدتى ! قد تسنح لى فرصة للهــرب . فاذا لم أرك مرة أخرى ، فاسمحى لى بأن أشكرك الآن . .

ــ نعم نعم ، انى لارجو ألا أراك ... على كل حال ، جميع المفاتيح فى أماكنها . فلا تكسر شيئا . واترك لى ساعة الحائط الصغيرة ، انها خربة ولكنها تذكار أعتز به .

وتخرج « مادلين » . أما هو فيظل لحظة جامدا لا يلوى على شىء ، ثم يتجه نحو الساعة المعلقة ، ويرمقها بنظرات فاحصة مدققة ، وكأنه قد انترى أن يصلحها بكل ما أوتى من عناية .

ــ ٢ ــ

• **وتتطور** الامور فى الفصل الثانى تطورا سريعا يغتصب انتباه الجمهور ويملك عليه مشاعره كلها . لم يتغير المنظر ، وانما انقضت أيام ثلاثة ، وانتقلنا الى عصر يوم بديع من أيام الربيع . وأمامنا « جيرار » ــ وهذا هو اسم الفتى المجهول ــ وقد انهمك فى تركيب قطع «الفونوغراف» بعد أن أصلحه . انه لا يعبأ بجرس التليفون الذى يدق ، فالخادم العجــوز « بنوات » هى التى أصبحت مكلفة بالرد على جميع السائلين ردا معينا . ولم يكن السائل سوى « بارنو » ، وقد تلقى الجواب المعتاد وهو ان « مادلين » قد خرجت ولم تعد بعد !

وتضع « بنوات » على المائدة طعام « جيرار » ، دون أن تخاطبه . ونحس أنها تنظر اليه على أنه دخيل بغيض ، وأنها تضيق بكل ما يصدر عنه . فاذا سألها عن البريد وهل وصل ، أجابته في لهجة جافة :

ــ ليس هذا من شأنك .

ويواصل « جيرار » عمله ، ويأكل دون أن يفرغ للأكل ، متناولا بيده ــ لا بالشوكة والسكين ــ ما يتيسر له من « الجامبون » والخبز . ثم تدخل « مادلين » فتحييه ، ويرد تحيتها فى أدب . وتندهش اذ تراه يصلح هذا الجهاز دون أن تطلب منه ذلك . غير أنها تستاء من أسلوبه الشعبى فى تناول طعامه وشرابه ، وتلقنه درسا فى آداب المائدة ، ناعية عليه عاداته الغليظة ، جادة فى تهذيبه .

ويزداد حنين « جيرار » الى الحرية وتنسم الهواء الطلق ، حين تروى له « مادلين » نزهتها فى غابة « بوانى » ، فقد خلبها سحر الورق الغض الذى خلعه الربيع على الشجر ، فأوقفت سيارتها وراحت تمشى الهوينا .. وعندما يعبر عن حسرته ، تسأله :

ــ فهل أنت شقى هنا ؟

ــ كلا ، بل أقضى أيامى منعما فى صورة لم يسبق لى أن تخيلتها . ولكن الحرية شىء آخر ..

ــ أليس هذا أفضل من السجن ؟

ــ بلى ، ولن أستطيع أن أوفيك حقك من الشكر . فمنذ حلولى لديك قلبت نظام حياتك ، واعلم مقدار ما يفرضه عليك ايوائى من شطط . فأنت لا تستقبلين أحدا ، وأنا أضايقك ، ووجودى خطر عليك ، وقد يورطك فيما تكرهين اذا عرفوا مكمنى ..

ــ أرجو ألا تكون قد بدوت من الشرفة ولا من النوافذ .

ذلك أن الشرطة مازالت تحاصر البيت ليل نهار .. ولابد

من الاقامة حيث هو حتى يجلو المراقبون . ولقد اشترت له « مادلين » بعض الملابس الداخلية من متجر أنيق، فاستنكر هذا الترف ـ وان يكن قد سجل فى مذكرته مجموع ما يدين به من نقود لربة البيت راجيا أن يوفى دينه هذا فى أقرب فرصة ـ واستنكر فوق ذلك فكرة استقراره لديها زمنا طويلا . فلقد كتب لصديقه « دوكرو » أن يدبر أمر فراره .

واذ تقدم الخادم الى سيدتها بريد ما بعد الظهر ، يتعرف « جيرار » على رسالة صديقه ، وتقرؤها « مادلين » وهى تتندر بايجازها وبما ورد فيها من أخطاء هجائية ، اذ يقول فيها : « ولا يهمك ! استعد . نحن فى التدبير . دودو » ، وتعقب :

ـ أشرح لى ماذا يعنى ..

ـ يعنى أننى سوف أصبح حرا طليقا ، آكل كما يروق لى ، وأقرأ الجرائد الشعبية التى تنفرين منها ، و ألقى أعقاب سجائرى حيث أشاء لا حيث تشاء خادمك !

ويطرق الباب طارق ، فيضطر « جيرار » الى الاختباء فى المطبخ . ويدخل « هولان » . لقد حضر بنفسه يستطلع ما خطب « مادلين » هذه التى لم يفلح فى الاتصال بها تليفونيا منذ أيام ! فتنتحل « مادلين » أعذارا واهية . **ويختلط الامر على العاشق المهجور عندما يفد « بارنو » بعد انقضاء دقائق قليلة ، فيظن أن هذا الاخير قد احتل مكانه واستأثر من دونه بحظوتها . ولكن « بارنو » يحتج أيضا ـ بأسلوبه الصارم ـ على احتجاب « مادلين » عنه ، ويعتقد أنها انفردت « بهولان » طيلة الايام الماضية ، مما يهيج غضبه على الفتى الرقيق !..**

ولا يلبث « هولان » حتى يفهم من فتور لقاء « مادلين » أنها

تصده على كل حال ، فيبدو على وجهه الاسى ، وينصرف فى كآبة وهدوء . ويخيل « لبارنو » انه هو الذى كسب المعركة ، فيقول شامتا للحسناء العصية :

ــ لقد مات اليوم غما وكمدا !

فترثى للفتى الراحل قائلة ، وكأنها تحلم :

ــ لقد كان دائما رقيقا .. أرق مما ينبغى . كان يخضع بكل ما اشير به عليه ، بينما كنت أحب لو انه ثار احيانا . ان روحه روح خنوع ..

وتقطع علينا الخادم هذا الحديث العميق الذى نستشف فيه نفس المرأة الضعيفة وهى تفتقد رجولة سليمة ، وتنشد عاطفة قوية يغمرها بها قلب نابض بالحياة الدافقة ..

بنوات : انه « السباك » .

مادلين : أى « سباك » ؟

وفيم يلح هذا الطارق ؟ انه يريد اصلاح خلل طرأ فى المطبخ ، على حين لا يعلم أهل البيت بوجود مثل هذا الخلل المزعوم ، والرجل يؤكد مع ذلك انهم استدعوه ، ويذكر العنوان بالتفصيل والتحديد . انه عامل تبدو عليه سمات الجد والاخلاص ، ولا يمسك عن الجزم ــ فى لهجته الباريسية الشعبية المضحكة ــ بأنه هو الشخص المطلوب . ولا تفطن « مادلين » الى حقيقة الامر الا عندما يخبرها أنه يدعى « دوكرو » . واذ ذاك تؤمن على مزاعمه ، وتتظاهر بأنها كانت قد نسيت موضوع هذا الخلل . وتتخلص المرأة الماكرة من « بارنو » متعللة بأنها ينبغى أن تفرغ للاشراف على العامل .

ويخرج « بارنو » ، يحدوه الامل فى لقاء آخر قريب .

وتختلى « مادلين » بالعامل « دوكرو » تستجوبه عن خطته المعدة لانقاذ صديقه ، راجية اياه أن يتبع غاية الحذر لئلا يزج بها فى أسوأ العواقب . وتدعو « جيرار » ، ويتداولون :

دوكرو : لقد حضرت فى سيارة نقل صغيرة ، ومعى حلة العمل الزرقاء ليلبسها «جيرار» ثم ينزل وتنطلق بنا السيارة .

مادلين : خطة ساذجة ! لقد فاتك أن رجال الشرطة يراقبون البيت ، ويعرفون أوصاف صديقك ، فلن تكفى الحلة الزرقاء لتضليلهم .

دوكرو : طبعا ! ولكن لكى يتعرفوا عليه ، ينبغى أن يروه أولا . وانى أؤكد لك أنهم سيكونون مشغولين بشىء آخر فى اللحظة التى نتسلل فيها . كم عدد رجال شرطتكم هؤلاء ؟

مادلين : لا أعرف .

دوكرو : أنا أعرف : انهما اثنان . وقد تحققت من وجودهما



.. وتختلى « مادلين » بالعامل « دوكرو » تستجوبه عن خطته لانقاذ صديقه ..

فى المقهى المقابل للبيت يلعبان الورق .

مادلين : أو يتظاهران باللعب .

دوكرو : لقد فكرت فى جميع الاحتمالات يا سيدتى . وقد اصطحبت لهذه المهمة زميلين لى ، سيدخلان المقهى . وسوف أضرب لهما موعدا محددا يبدآن فيه التشاجر معا لكى يغتصبا انتباه الشرطيين ، وفى هذا الوقت نركب نحن سيارتنا !

ويعجب « جيرار » بالخطة ، وأما « مادلين » فتتوجس خيفة من أى مفاجأة ، وتحاول تثبيط عزم صاحبيها .. ويصر الرجلان على التنفيذ ، فينزل « دوكرو » للاتفاق مع رفيقيه على التفصيلات الاخيرة . ويظل أمامنا «جيرار» و «مادلين» .

جيرار : لقد حان أن أريحك من متاعبى .

مادلين : أتمنى لك حظا سعيدا . ماذا أنت فاعل بعد ذلك ؟

جيرار : أظن أننى سأذهب الى اسبانيا ، لدى بعض أصدقائى هناك ، اذ ينبغى أن أضع حدا بين الشرطة وبينى لفترة من الزمن . ولكن هذا لا يهمك ، فسوف تخرجين من هذه القصة وتستأنفين عاداتك وحياتك اللينة .

مادلين : وحياتك أنت ، بلا أمل وبلا هدف ، ألا تخيفك ؟ .. لسوف ينقضى شبابك ذات يوم وتسأم تلك الحياة التى حرمت عليك فيها الراحة والدعة ، على حين لن تسأم الشرطة من تعقبك ، ويسهل عليها فى آخر الامر أن تعتقلك .

وتبوح له بخطتها :

ــ اسمع لى جيدا : بين أصدقائى عدد من ذوى المناصب والنفوذ ، ومن المحامين الكبار ، هل تريد أن أعرض عليهم أمرك ؟

ــ شكرا ! لن أنزل عن وضعى ولن أستسلم للمجتمع . لقد فكرت مليا فى موقفى قبل أن أتخذه ، وأريد أن أتبع أفكارى حتى النهاية لأرى ما إذا كنت رجلا .

ــ انك مازلت شابا ، وستظهر لك جلية الامر فيما بعد ، فكن عاقلا !

ــ يبدأ المرء بالشباب وينتهى بالعقل ، ولكننى أريد أن أظل شابا حتى مماتى .

ــ هذا كلام فقط . وعندما تكتسب من الخبرة أكثر مما لديك . .

ــ اذا كانت الخبرة سلسلة من الاذعان والرضوخ ، فلن تكون لى خبرة على الاطلاق !

ــ انت تظن انك قوى الشخصية ، ولكنك فى الواقع معاند تركب رأسك . وتظن أنك تعمل ، ولكنك تضطرب ولا تنتج شيئا . ان الحياة جميلة ، صدقنى !

ــ لمن تقولين هذا ؟ انى لأرى الحياة رائعة ! حياة الحرية . .

ويعود « دوكرو » منبئا بأن رفيقيه قد تأهبا لاحداث شغبهما بعد ثمان دقائق . وتصر « مادلين » على أن يأخذ « جيرار » ما اشترت له من ملابس ، وتنهض لحزمها . وقبل أن يدلف « جيرار » الى المطبخ وراء صاحبه ليرتدى حلة العمال ، يلتفت الى صورة « مادلين » الموضوعة على احدى قطع الاثاث ، وينزعها من اطارها ، ويدسها فى جيبه .

ويخلو المسرح أمامنا برهة ، ثم تظهر « **بنوات » قاصدة جهاز التليفون ، وتطلب رقم المقهى المجاور ، حيث تتصل بمفتش البوليس ، وتبلغه ــ دون أن تكشف عن شخصيتها ــ**

ان المجرم المرتقب سيخرج عما قليل من باب البيت ، فعليه ألا يلقى بالا الى ما نشب من شجار بين عاملين فى المقهى !

ترى هل تحدثت الخادم هذا الحديث القصير الرهيب من تلقاء نفسها ، أم قد أوعزت اليها بذلك سيدتها الداهية ؟.. سر ان نستطيع أن نجتلى كنهه قبل ختام الفصل .

وينزل « دوكرو » حاملا حزمة الملابس ، وعلى « جيرار » أن يتبعه بعد دقيقتين . ولا يكاد البطل الهارب يشكر «مادلين» ويصافحها ويتجه الى الباب ، حتى يطرق طارق . فيتوقف « جيرار » وقد اعتراه القلق . وتومىء اليه « مادلين » بأن يختبىء فى غرفتها ، فيتردد هنيهة ثم يفعل . وتعلن الخادم لسيدتها أنه مفتش البوليس يريد مخاطبتها .

ويحييها مفتش البوليس ، ويسألها متعجلا :

ــ هل حضر لديكم « سباك » ؟

ــ نعم .

ــ بناء على طلبكم ، لاصلاح خلل ما ؟

فتجيبه مادلين بالايجاب ، مما يوقعه فى أشد الحيرة ، اذ أنه اعتقله بفضل وشاية تليفونية ، وكان يتأبط حزمة من الملابس الداخلية الجديدة ، وقد صاح : « احذر ، البوليس ! » . وترتاب «مادلين» فتنفى أنها صاحبة الملابس ، ويؤمنها المفتش :

ــ أجل ، فهى ملابس رجل ، لابد أن العامل قد أحضرها لشريكه .. وكان برفقته أشخاص آخرون تواروا مذ رأينا نرتقبه .. وتلك ظواهر يحوطها الغموض .. لقد استجوبناه عن الذى كان يفعله فى المنزل ، فأجابنا بأنه فرغ من العمل لديكم . وتؤكد ربة البيت صدق العامل ، موصية به خيرا ، فيطمئنها

مفتش البوليس وينصرف .

ويخرج « جيرار » من مكمنه ثائرا حائرا ، مستنكرا تلك الوشاية التى راح ضحيتها صديقه الهمام . وتحاول «مادلين» – رابطة الجأش – أن تهدىء خواطره ، وترسم له حدود الخطر الذى لاح ، مبينة أنه لن يناله . وأما « دوكرو » ، فستستعين بأحد المحامين لاطلاق سراحه .

وما العمل الآن ؟ لن يستطيع الفتى الطريد أن يستنجد بصديقه هذا مرة أخرى . ولابد أن الشرطة ستشدد المراقبة . لا ملاذ له الا حيث هو ، الى ما شاء الله ، فى ضيافة هذه الحسناء التى تبتسم له ، بعد أن أرغمته على الاقامة لديها ارغاما !

وتتسلم « مادلين » سلة من الازهار أرسلها « هولان » ، وأرسل معها – فى غلاف صغير – مفتاح بابها .. انها علائم التحول ، فقد انتهى الماضى ، وبدأ عهد جديد ..

ويظن « جيرار » انه وحده فى الغرفة ، فيعيد خلسة صورة « مادلين » الى اطارها . ولكن « بنوات » تلمحه – وان لم تميز ماذا فعل – فتزجره وتعنفه ، وتأمره بالذهاب الى المطبخ لمعالجة البالوعة التى انسدت . **انها مازالت تعتبره لصا خطيرا متطفلا . فما أشد ما تندهش اذ تصدر اليها سيدتها التعليمات بالا تغلق شيئا فى البيت بالمفتاح ، وبأن تعامل السيد « جيرار » بكل احترام وود !**

— ٣ —

• **وترتفع** ستارة الفصل الثالث عن المنظر ذاته ، وقد خيم المساء ، والخادم تعد المائدة لشخصين ، وهذا « جيرار » يسأل

« مادلين » فى لهفة - وهى عائدة من الخارج - بماذا أنبأها الصديق « فوجاريه » ؟ فتطمئنه بأنه ذهب الى المحكمة وعلم من المحامى أن اطلاق سراح «دوكرو» سيتم خلال بضعة أيام .

وقبل تناول العشاء ، يصب « جيرار » كأسا من نبيذ « بورتو» ويشربها ، وهو يترقق فى حديثه الى الخادم العجوز :

- انك شخصية ممتازة ! هل تذكرت ان تضعى خطابى فى صندوق البريد ؟

- نعم .

- بكل حذر ، أليس كذلك ؟ بعيدا عن صناديق بريد الحى ، وفى صندوق مختلف كل مرة ؟

- كن مطمئنا .

- انى لست مطمئنا ، لانى لم أتلق ردا من صديقى «كوزدا» على رسالة أمس الاول .

- انتظر ! لم يمض على ذلك وقت طويل .

ذلك أن « جيرار » يحاول أن يعيد الكرة ، ويلتمس وسيلة للهرب مستعينا بهذا الصديق . **ونحن نعلم أن « بنوات » لم ترسل الخطاب ، تنفيذا لامر سيدتها التى تراقب مراسلات « جيرار » مراقبة سرية ، والتى أنشأت ردا على تلك الرسالة المحتجزة ستدسه الخادم بين ما حمله البريد الوارد بعد الظهر ، حين تعرضه على سيدتها أثناء العشاء .**

والجديد فى هذا الفصل هو أن « جيرار » لا يتناول عشاءه وحده ، بل يدعى الى تناوله مع « مادلين » ، التى تظهر فى ثوب جميل من ثياب المساء ، وكأنها تحتفى بمناسبة سعيدة .

ويتواضع « جيرار » عندما يشعر بتلك الحفاوة وذلك الاكرام ،

ولكن « مادلين » تبدى سرورها لقضاء السهرة معه فى البيت . ويجلسان الى المائدة ، وتتولى هى تهذيب أسلوبه ، بينما يثور هو على تقاليدها الراقية المتكلفة ويغريها بالبساطة. ثم تسأله :

– كيف قضيت وقتك ؟

– فى القراءة ، ثم فى البحث عن وسيلة تخرجنى من هنا .

– وهل وجدت ؟

– قررت ان اطلق لحيتى .

– **انى أمنعك من هذا ..**

– ولماذا ؟

– **لان ذلك خليق بأن يفسد شكلك !**

– ولكنه سوف يغير من صورتى .. وحاولى أن تحصلى لى على قبعة سوداء ، ومنظار ، وحلة قاتمة ، ووسام « جوقة الشرف » اذا تيسر .. فبهذا كله أستطيع أن أجتاز الشارع أمام اولئك السادة دون أن يشتبهوا فى أمرى !

– انى لا أحب أن أرى رجلا ملتحيا فى بيتى .

– فليكن ! اننى يوم أصبح ملتحيا سوف أغادر البيت .

– وكم من الوقت يلزم لنمو اللحية ؟

ونحن ندرك أنها تسعى الى استبقائه على كل حال . ويؤكد لنا نيتها هذا الخطاب الذى تحضره « بنوات » ضمن البريد ، وتتعجل « مادلين » تلاوته لتدعيم ما قالته من أن أسلم الحلول هو الانتظار حتى ينفد صبر رجال الشرطة المرابطين : « لا حيلة لنا فى الوقت الحاضر ، فالحراسة المضروبة على البيت شديدة . عليك بالهدوء والحذر ! » .. رسالة مكتوبة بحروف الآلة الكاتبة ، و لاتحمل توقيعا ، يتأملها « جيرار » ويقتنع

بأنها جواب صديقه الحكيم « كوردان » . ويعتريه الهم ، ويعتذر لربة الدار من الاثقال عليها أياما أخرى قد تطول ، بيد أنها تسرى عنه قائلة :

ـ انى لست آسفة على شىء ، بل ان فى مغامرتك لهوا طريفا لى أصبح يثير شغفى وسط هذا الحصار المضروب من حولنا . لقد قلب وصولك الى هنا كل عاذاتى ، ولكن مقامك بدأ يخلق لى عادات غيرها . **ان لى الآن همًا وهدفا : ان انقذك . ولى أمل ايضا ، هو أن أجعلك أقل توحشا وأن أصقلك . بودى ان تكون سعيدا .**

ـ انى لسعيد . بطبيعة الحال ، هناك بعض ما يقلقنى ، ولكن منذا الذى تخلو حياته من الهموم ؟

ـ لقد اخبرتنى يوما أنك كنت عاملا فى مصانع سيارات « سيتروين » ، ثم بمطبعة فى « ليون » ، ثم اشتغلت بناء فى اقليم « الايزير » ، وصحافيا فى « سانت اتيين » ... انك أفضل من هذا كله !

ـ وهذا كله .. ما أروعه !

ـ ألم تحب قط ؟

ـ لى أصدقاء .

ـ والحب ؟ ما مكانه فى حياتك ؟

ـ طبعا ... هذه التنقلات المتلاحقة لم تتح لى كثيرا من الوقت للتفكير فيه ..

ـ ولهذا أشفق عليك .

ويقطع عليهما شجون الحديث طارق على الباب لا تفلح الخادم فى اقناعه بأن سيدتها قد خرجت . ونسمع صوت

« بارنو » عاليا يقول :

ــ أبلغيها مع ذلك انى أريد أن أخاطبها .

ويضطر « جيرار » الى الانزواء فى غرفته . ويقتحم «بارنو» البيت ، رغم مقاومة « بنوات » ، فيجد « مادلين » :

ــ ألم أقل لك يا « بنوات » انهـا هنـا ؟ لقد برحت بك الشيخوخة وأفقدتك الذاكرة ..

وتتغلب « مادلين » على ارتباكها فتحييه واقفة :

ــ طاب مساؤك يا « بارنو » ! ما خطبك ؟

ــ أفهكذا تحكمين على بالنفى والاقصاء ؟.. لقد أحسنت صنعا بالدخول عنوة ..

ويبدأ بينهما مشهد عاصف . فالرجل القوى المدحور قد استعان بالخمر وأقبل ثائرا يتحدى هذه الحسناء التى استعصت عليه . وعبثا تحاول « مادلين » أن ترده الى الهدوء ، فقد رأى على المائدة ما يثبت له أن شخصين كانا يتناولان العشاء معا ، فمن يكون هذا الحظى الاثير ، بل هذا الجبان الحقير الذى يتوارى دون شك فى ركن من أركان البيت ؟.. ويرفع «بارنو» صوته ليبلغ مسمع غريمه الخفى. وتنهاه «مادلين»، فيتمادى، وتأمره بالانصراف فيرفض ، وهنا تقترح « بنوات » أن تستجير بالبواب .. ولكن « بارنو » يصول ويجول كالوحش الهائج ، لا يحد من انفجار غضبه تودد « مادلين » وزعمها أنها خارجة لقضاء السهرة فى أحد المسارح وأنها تدعوه الى اصطحابها . لقد ارتدت بالفعـل معطفها واتجهت نحـو الباب ، أما هو فيتملص :

ــ عربتى وسائقى أمام مدخل الدار تحت تصرفك . انى

أفضل البقاء هنا ، لاكتشف ما غمض على منذ واقعة «السباك» فلقد شككت فى أمرك وبثثت المراقبين يرصدون لى حركاتك وسكناتك . انى أعرف انك تطيلين المكث فى بيتك ، ولكن فى الامر سرا ..

ـ انك خسيس !

ـ لقد زرت اليوم « فوجاريه » ، أليس كذلك ؟ وبعد خمس دقائق من انصرافك ، كنت أنا لديه لافحص ملامحه وأستنتج هل هو ..

ـ هو ماذا ؟

ـ عاشقك .

فتضحك ، وتتنفس الصعداء ، لان هذا الرجل الغبى لم يفطن الى جوهر الخطر الذى تخشاه ، وانما جانبه فى اللحظة التى توهمت فيها أنه قد أصاب المرمى :

ـ ومالك تحاسبنى كالزوج الغيور ؟ انى أستطيع أن أقدم لك عاشقى اذا راق لى ذلك .

ـ فلماذا لا تفعلين ؟

ـ لانى قطعت علاقتى « بهولان » ، ولا صلة لى الآن بأحد .

ولكنه موقن بأنها تؤوى رجلا لديها .. وينقض على جهاز التليفون فيخاطب جميع أصدقاء « مادلين » من الرجال ، ليتأكد من وجودهم فى بيوتهم . وبالفعل يجيبه بالايجاب كل من « فوجاريه » و « هولان » . فيشتد غيظه ، ولا سيما بعد أن تصف له « مادلين » فى سخرية مؤلمة كيف كانت ـ بعد انصرافه من زيارتها كل مرة ـ تنفق بقية الليل مع «هولان» ! . . وفى نوبة حنقه تراوده نفسه : ما دامت الآن وحيدة ـ كما

تزعم ـ فليفض منها وطره بالقوة ! .. واذ يهاجمها ويطوقها بذراعيه ، تتمنع وتدافع عن نفسها باصرار !

وهنا يظهر « جيرار » ، غاضبا متجهما ، يريد تأديب ذلك الاحمق :

ـ دع هذه السيدة والا حطمت رأسك !

ويترك « بارنو » «مادلين» ، يتركها فريسة للهلع ، ويتحول نحو هذا الرجل . ولكنه لايعرفه ، فيقول له «جيرار» متهكما :

ـ انك قصير الذاكرة !

ـ أتكون مفتش البوليس المزيف ؟ المجرم الهارب ؟

ـ هو ذاك .

ـ مادلين ! ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟

فتشرح له أنه استجار بها من الشرطة التى كانت تطارده ، فأجارته ، ومازال فى حمايتها حتى تسنح الفرصة لفراره . **غير أن « بارنو » يتهمها بأنها استبقته لديها لغرض آخر .. ويأبى « جيرار » من « بارنو » أن يهين ربة البيت بألفاظه النابية وأفكاره الدنيئة ، فيأمره بأن يعتذر اليها** . ويتطاير الشرر ، ويحتدم الصراع ، وتتوسط المرأة بين الرجلين خشية أن يفتك أحدهما بالآخر . ويرفع « بارنو » سماعة التليفون لابلاغ البوليس ، فينزع « جيرار » السلك . واذ يستحيل الاتصال بالخارج ، يسرع « بارنو » الى الباب قاصدا قسم البوليس على الفور . فتتدخل « مادلين » لتدرأ الشر الوشيك ، وتقنع « جيرار » بأن يلزم غرفته حتى تفاوض « بارنو » ليعدل عن اصراره . ويالها من مفاوضة !

ـ أقسم لك أنه ليس عاشقى !

ـ انى متـأكد من ذلك . ولا بد أنه صفيق الغباء اذ لم يستنتج أنك تحبينه .

ـ هو أيضا يحبنى .

ـ وكيف تعلمين ؟

ـ لقدأعلن لى حبه الآن أمامك، عندما برز منمخبأه ليدافع عنى ، مضحيا فى سبيل ذلك بحريته .

ويثير حنق « بارنو » اعجابها بغريمه ، فيهم بالخروج ليعود مع الشرطة . فتستوقفه مستعطفة متوسلة . ويلذ للرجل العنيد الذى لم يعهد من هذه المرأة الا الصد والكبرياء ، أن يراها بين يديه ذليلة كسيرة حانية الرأس . وها هو ذا يملى عليها ـ ازاء رجوعه عن قراره ـ شرطه الاوحد الذى لا يقبل فيه مساومة :

ـ أن تصبحى زوجتى فى أقرب فرصة .

فيسيطر عليها الوجوم ، وترفض ، وتستنكر ، وتطرد « بارنو » طردا . أما هو ، فيقول لها قبل أن يخرج :

ـ سأمهلك ساعتين ثم أخاطبك تليفونيا لاعرف جوابك الاخير .

وتظل بلا حراك شاردة الفكر .. لقد أغراها « بارنو » بأن يشترك ـ اذا رضيته زوجا ـ فى تيسير هرب « جيرار » الى دولة أخرى . ترى ماذا تختار ؟

وها هو ذا « جيرار » . انها تعتذر اليه ، غير أنه لا يندم على انقاذها من براثن ذلك الوحش الضارى :

ـ هل تستطيعين أن تتخيلى شفتيه على شفتيك ؟

ـ ولكنك لو لم تظهر ، لظللت حرا .

ـ بهـذا الثمن ؟ حاشا ! على كل حال ، ليس من حق

البوليس أن ينتهك حرمة بيت قبل الفجر ، والشمس تطلع فى الساعة الخامسة . ومن يدرى ؟ لعلى خلال هذا الوقت أن أجد وسيلة للفرار . أين مسدسى ؟

ــ فماذا أنت فاعل ؟

ــ أدافع عن نفسى . أبحث عن مأوى آخر أو أمرق من ايديهم بالقوة . فاذا استجوبوك ، فلا تعترفى بشىء ، واما انا فلن أذيع سرا .. **ومهما يحدث ، فلن يسعنى الا أن أشكرك . فبفضلك عشت أجمل أسبوعين فى حياتى .**

ــ لا تشكرنى ! آه لو علمت ..

ويفيض دمعها وهى تستغفره .. فلقد أخفت عنه أن الطريق أمامه قد صار مفتوحا آمنا منذ أسبوع ، بعد أن جلا رجال الشرطة ، ولكنها كانت ترجىء أن تنبئه بذلك من يوم الى يوم .

ــ حقا ؟ ولماذا ؟

ــ ولماذا أتيت أنت من مكمنك عندما ظننت أن « بارنو » قد طوقنى بذراعيه ؟

ويجمعهمـا الحب الصـادق المكنون ، فى عناق طـويل ، وتنسدل الستارة .

— ٤ —

• **والفصل** الرابع فصل قصير ، ولا تسبقه فترة استراحة . ها نحن نلتقى بمادلين وجيرار ، فى نفس المكان ، وقد ضمتهما الاريكة الوثيرة ، لنسمع فى أول ساعات النهار ختام حديثهما . انهما يستعرضان البلاد التى يمكن أن يلجأ اليها البطل الطريد ،

فيستبعدان انجلترا وسويسرا وايطاليا ، ويقع اختيارهما على اسبانيا :

– هناك تلحقين بى . لماذا لا ترحلين معى ؟

– لا أستطيع بهذه السرعة . ينبغى أن أصفى شئونى هنا أولا .

– انك لتفرغين من هذا كله خلال أسبوع على أكثر تقدير .

– من يدرى ؟

– فهل ترهبين المستقبل ؟

وتحاول هى أن تطمئنه ، الا أنه لا يمسك عن سؤالها :

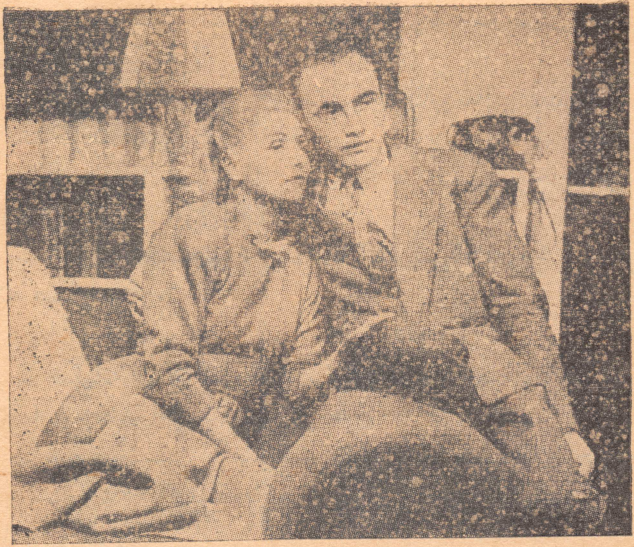
– متى تأتين ؟ وهل حقا ستأتين ؟

لقد وعد « بارنز » بتهريبه اليوم الى الحدود . وهو يتخيل حياته فى اسبانيا ، عاملا كادحا طول النهار ، سعيدا بأن يعود الى « مادلين » فى المساء ، راضيا بعيشهما الهانىء البسيط فى بيت صغير :

– ان حلمى .. هو أن يكون لنا بيت صغير على شاطىء البحر . لقد حددت منذ الآن موقعه . فلقد سحرنى ذلك البيت عندما اجتزته ، وعللت نفسى بالرجوع اليه . انه بيت فلاح اسبانى تحوطه الكروم ، وتكاد تصعد اليه أمواج البحر ، فى قرية اسمها « خوانيزو » بقرب « فالنسيا » ، ويعرفها الناظر من بعيد ببرجها الابيض المستدير ..

وتعجب « مادلين » بشاعريته المرهفة . وتلاحظ أنها كانت تعيش فى عالم آخر لا تطوف به مثل هذه الاحلام الوضيئة .

لقد كان يخيل اليها أنها سعيدة ، ولكن « جيرار » طلع عليها طلوع الرسول يؤنبها على لهوها العقيم ، ويبين لها تفاهة



.. ان حلمى هو ان يكون لنا بيت صغير على شاطىء البحر .. انه بيت فلاح اسبانى تحوطه الكروم ، وتكاد تصعد اليه أمواج البحر ، فى قرية اسمها (خوانيزو) ، بقرب (فالنسيا) .

مجتمعها ، ويشعرها بالقلق والفراغ من حولها . انها لتتحرر هى أيضا من ماضيها ..

ويدخل « بارنو » ، يتبعه شرطيان مكلفان بحراسة «جيرار» حتى يعبر الحدود . انه يفى اذن بالوعد الذى قطعه لمادلين ، وقد استخدم نفوذه لدى رجال الامن لتسوية الموقف بهذا الاسلوب الذى يضمن له اقصاء غريمه عن تلك التى ستصبح

زوجته .. ويطلب الفتى - تضليلا لخصومه - أن يقاد الى الحدود البلجيكية .

وتودع المرأة حبيبها وهى تكتم لوعتها وتغالب دمعها .. ثم يوصد الباب عليها مع « بارنو » .

ولكن هل خلا الجو حقا « لبارنو » ، وانتصر الرجل البغيض؟ هذه « مادلين » تقول له :

- انك لم تخضعنى ، وانما أنا أنفذ شرطا مفروضا أسفرت عنه مساومتنا .

- أعلم ذلك .

- فعليك أن تناضل ضد ذكرى عميقة الصفاء ، لم تشبها شائبة ، وضد أمل يتجدد كل حين .

- نسوف تنسينه بنفس السرعة التى بها ظننت أنك أحببته . وليست هذه القصة بأكملها سوى مغامرة سأمحوها من خاطرى ، ولن أذكرك بها .

- وهو ؟

- هو سرعان ما ينساك . انه لا يحبك أنت وانما يحب مبادئه الشاذة ، وكفاحه الخائب ، حيث يعتبر كل فرار نصرا ..

ويخيم عليهما الصمت لحظة ، ثم تسأل « مادلين » :

- فما موعد الزواج ؟

- فى أقرب فرصة . وبعد العقد مباشرة سوف نبحر فى « يختى » الذى ينتظرنا بميناء « كان » .

- الى أين ؟

- الى حيث يروق لك .. الى اليونان .. الى مصر .. او الى أى بلد آخر ...

ـ انى أريد .. أريد أن نسير بمحاذاة الشاطىء الاسبانى ..

ـ هذا من السهل .

ـ فهناك قرية أود أن أراها .

ـ هل ذهبت الى هناك من قبل ؟

ـ نعم .. سأعرفها كما لو كنت قد عشت فيها .

ـ وما اسمها ؟

ـ انها قرية صغيرة مجهولة ، اسمها ((خوانيزو)) قرب ((فالنسيا)) .. وعلى الشاطىء بيت فلاح اسبانى تحوطه الكروم ، وتكاد تصعد اليه أمواج البحر .. سأعرفها من بعيد ببرجها الابيض المستدير ..

وتمد بصرها ، وكأنها ترى فى الافق ما تصفه عباراتها الحالمة ، بينما تهبط الستارة .

الجريمة..
والعقاب



المحاكمات
الكبرى
فى الماضى والحاضر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة « جورجيت هودو » ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين «بيرك» و « هير » .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم « سقراط » .. ومحاكمة «آن بولين » ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن ، فمحاكمة « دريفوس » .. ومحاكمة « ستافسكى » .. ثم محاكمة « مرجريت فهمى » .. ومحاكمة ملك انجلترا « شارل الاول » واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. ثم محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات أثينا القديمة) و « جريمة درب العشاق » .. وأخيرا « جريمة حارة التونى »

واليوم أقدم لك محاكمة عالم كبير وقطب من رجال القضاء هفا الحب برأسيهما فانحدرا الى درك الجريمة .. من أجل امرأة سمراء فاتنة


DAMES ET
DRAMES EN
JUSTICE
par
ROGER REGIS
نساء ومآسٍ فى ساحة العدالة
الغانية السمراء !
قصة جريمة، ومحاكمة مثيرة، استقى وقائعها ووثائقها - من سجلات
المحاكم فى القرن السابع عشر - الكاتب والمحقق الفرنسى "روجيه ريجى"

قصة لقائى .. مع هذا الكتاب

بروكسل .. بعد ان انفض معرضها الدولى ، وتفرق رواده من حيث جاءوا .. فى أربعة أركان الأرض !

وفرغت من زحمة المعرض ، لأتعرف على المدينة ذاتها .. بروكسل الأنيقة الفاتنة .. وقادتنى قدماى ذات صباح الى شارع (جران بوليفار) ، ذلك الطريق العريض الجميل الذى يحيط بالمدينة، كالقلادة حول رقبة حسناء ..

وقرب تقاطعه مع شارع (أدولف ماكس) أمام ميدان (محطة الشمال) ، لمحت ذلك المتجر العريق الذى تتيه به بروكسل ، وباريس ، وكانت تتيه القاهرة بفرع له منذ ربع قرن : متجر « البون مارشيه » !

.. وكان يمكن أن ادخله وأخرج منه دون أن أعرج على قسم الكتب فيه ، فهو قسم لا يخطر ببال زائر مثل هذا المتجر الكبير المشهور بالأقمشة ، والأزياء ، والتحف ، والأثاث .. الخ .. ولكن شاءت المصادفة أن أدخل المتجر من باب جانبى ، يفضى ـ أول مايفضى ـ الى قسم الكتب ..

واذا بى فى «مكتبة» ضخمة تزدحم بألوف الكتب ، والمجلدات ، والمجلات ، فى كل فرع وعلم وفن ، مما لا تجده فى أكبر المكتبات المتخصصة فى تجارة المطبوعات ! (وقد اقتنصت فيما بعد مجموعات أخرى من الكتب النادرة ، من متاجر مماثلة له ، منها متجر Magasin ، أكبر متاجر كوبنهاجن ، ومتجر ستوكهولم المشهور (N.K.) •• ثم من أمثالهما من المتاجر الكبرى العامة ، فى كل عاصمة أوربية •• وليت المتاجر الكبرى فى عواصمنا العربية تدخل وتعمم هذا التقليد الجميل الذى لا يعرفه منها حتى الآن سوى متجر « هانو » بالقاهرة ، ولكن على نطاق ضيق جدا •)

وبعد جولة طويلة بين مناضد ذلك الجناح الشائق من « البون مارشيه » ، خرجت بمجموعة من الكتب الفرنسية الممتعة ، بعضها من مطبوعات دور النشر الباريسية ، والبعض الآخر أصدرته دور بلجيكية فى بروكسل ذاتها • وكان من بين كتب المجموعة هذا الكتاب الذى أقدمه لك فى الصفحات التالية ••

« نساء ومآس ، فى ساحة العدالة »

Dames et Drames en Justice •• ترى ماذا وراء هذا العنوان الجذاب ؟ •• وتناولت الكتاب أقلبه

بين يدى ، وأقرأ مقدمته ، فاذا هى تعد بجولة واسعة فى تاريخ الجريمة والعقاب أمام القضاء الفرنسى ، فى مختلف العصور .. ومما يزيد من متعة هذه الجولة ان جميع المحاكمات التى تناولها الكتاب تخص جرائم من نوع خاص غير عادي . جرائم ارتكبتها .. نساء ! .. وهكذا يتيح لنا الكتاب أن نرى كيف تستطيع « الأيدى الناعمة » أن تتحول فى بعض الأحيان الى أيد « قاتلة » ، متوحشة ، مخضبة — بدل الحناء — بالدماء ! .. وأن نلمس الدوافع التى تجعل الحب — والحب الصادق ، المضحى ، فى كثير من الأحيان ! — قديرا على ان يقود ، من فرط عنفه ، الى الجريمة !.. وقديما قال «جايو دى بيتافال» — أحد مشاهير المحامين فى القرن الثامن عشر — ان الجرائم الكبرى تتطلب من الجرأة ورباطة الجأش أكثر مما تتطلبه الفضائل الكبرى ، لأن المجد الذى يصاحب الفضائل الكبرى هو فى ذاته حافز قوى ، بينما التحقير الذى يكون عادة من نصيب المجرم كفيل بتثبيط همته .. واذا كان هذا الرأى قابلا للمناقشة، من وجهة النظر الاخلاقية ، فالذى لاشك فيه ان الجرائم أكثر رسوخا فى ذهن الانسان من الفضائل ، لاسيما اذا انطوت هذه الجرائم على عنصر «عاطفي» ،

أو كانت بطلتها امرأة فاتنة !

وقد عنى الكاتب والمحقق الفرنسى «روجيه ريجى» ــ الذى وضع أكثر من اثنى عشر كتابا استمد مادتها من جرائم التاريخ وأحداثه الغامضة ! ــ بأن يجمع فى هذا الكتاب أشهر جرائم الماضى ومحاكماته ومآسيه ، بعد ان أعاد تحقيقها وألقى عليها أضواء جديدة لم تسنح لمن سبقه من المحققين فرصة استيفائها فى تحقيقاتهم السابقة .

وفيما يلى ، أقدم اليك الحلقة الأولى من « نساء ومآس فى ساحة العدالة » ، تتبعها الحلقات الأخرى فى الأعداد التالية باذن الله .. فتعال نعد الى القرن السابع عشر ، فى صحبة الغانية السمراء « فيولانت » ، ذات العينين الساحرتين :

الغانية السمراء !

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

• كان الاستاذ « فرانسوا دى جايرو » ــ قاضى المحكمة الابتدائية فى مدينة (تولوز) ــ رجلا صارما ، لا تشرق أساريره قط ، ولا ينم وجهه عن شىء مما فى نفسه الا نادرا ، ولا يسير الا بخطى وئيدة ، لا بتأثير السنين التى كانت تثقل كاهله فحسب ــ اذ كان فى الستين من عمره ــ ولا بحكم جلال مقامه ، ومهابة منصبه .. وانما كان العامل الاكبر فى بطء خطواته يرجع الى افراطه فى الاعتداد بنفسه !

وفي تلك الامسية من أمسيات اكتوبر سنة ١٦٠٧ ـ تحت حكم الملك هنري الطيب ـ اتخذ الاستاذ فرانسوا سبيله ، في تؤدة ، صوب جسر (كومانج) ، احد الجسور الخشبية التي كانت مقامه عبر نهر (الجارون) . وكان يسير رافع الرأس ، شامخ الانف ، ثابت النظرات فيما أمامه ، متجاهلا تحيات من كانوا يصادفونه من الناس فيتنحون عن طريقه احتراما .. حتى اذا بلغ ضاحية (سان سبريان) ، أتجه صوب شارع ضيق ، زري ، تسكنه أسرات العمال وأصحاب الحرف ، وكانت ساعات المدينة تشير وقتئذ الى الخامسة . **وكان الاستاذ فرانسوا يدرك مقصده تماما ، فقد اعتاد ان يتبع ذات السبيل في مثل ذلك اليوم ـ وفي أيام أخرى ـ من كل أسبوع ، بيد أنه كان يومذاك متقدما عن موعده المعهود !**

وكانت تحف بالشارع منازل منهارة الجدران ، متداعية السقوف ، فاتجه القاضي صوب منزل كان أفضلها حالا ، وقد ازدان بشرفات بديعة الزخرفة والمنظر ، واذ بلغ عتبة هذا المنزل ، فوجىء بالباب الرئيسي يفتح ، وخرج منه رجل في حوالي الستين من عمره ، يتشح بالسواد ، وقد أوتي جسما نحيلا قصيرا ، ووجها ضامرا ، وعينين كحبتي الكهرمان الاسود .. ووجد الرجلان نفسيهما وجها لوجه ، حتى لقد أوشك أنفاهما أن يتماسا ، وصدرت من كل منهما صرخة مفعمة بالدهشة : « بروفيسور دي جايرو ! » .. « بروفيسور بيردو ! »

كانا صديقين منذ شبابهما ، كما كانا زميلين بحكم مقاميهما في المدينة ، اذ كان احدهما يمسك ميزان العدالة بيد ثابتة ،

وكان الآخر « بيير آريا بيردو » دكتورا فى اللاهوت ، وأستاذا فى جامعة (تولوز) .. ولكن اللقاء فى تلك الساعة ، وفى ذلك الشارع النائى المنعزل ، كان مفاجأة ادهشت كلا منهما وعقلت لسانه لحظات . وما لبث القاضى ان أشار الى الشرفات الجميلة ، وهو يتساءل : **« أتراك منصرفا من زيارة الآنسة دى شاتو ؟ »** . فرفع الرجل المتشح بالسواد عينيه نحو الشرفات ، ثم أغمضهما كطائر من طيور الليل بهره النور ، واجاب بسؤال آخر : **« وهل تراك — انت الآخر — قادما لزيارة الآنسة دى شاتو ؟ »**

وانتفخت أوداج القاضى غيظا ، ولكنه لم يلبث ان عدل عن موقفه ، وهمس لصديقه كمن يسر اليه بسر خطير : « لابد أن قوة عليا ساقتنا الى اللقاء أمام باب هذا لبيت ، لحكمة ما ! .. لهذا فسوف أفضى اليك بسر ماكنت لاذكره لغير صديق أثق فى حكمته ورصانته وتكتمه ! .. **لقد تكرمت الآنسة دى شاتو منذ حوالى ستة أشهر ، فآثرتنى بحظوة زيارتها مرتين أو ثلاثا فى الاسبوع، وتناول العشاء معها ! »** . فقال أستاذ اللاهوت بدوره : « ان صراحتك ياصديقى تحملنى على صراحة مقابلة ، فمنذ ثمانية أشهر على الاقل لا تأبى الآنسة دى شاتو على شيئا ، واذا كنت قد زرتها اليوم — وهو ليس من ايام زياراتى — فانما لاحضر لها قطعا من « الدانتيلا » كانت جد تواقة لاقتنائها ! »

وهتف القاضى مغيظا : « يالك من شقى ! » . ولكن زميله قال : « مهلا ياصديقى ، أفلا ترى انك شقى مثلى ؟ » ..

ووقف كل منهمـا يرقب الآخر وقـد زم شفتيه ، وتطاير الشرر من عينيه !

ماضيها مريب .. وحاضرها مشين !

• **وكان** اسم المرأة التى أشارا اليها وهى « الآنسة دى شاتو » ، اسما غير مستعمل ـ والواقع أن المقربين اليها خلعوا عليها اسم « فيولانت » ، أى « العنيفــة » ! ـ وكانت قد ولدت فى البرتغال ، قبل عشرين سنة تقريبا ، ولكن أحدا لم يلم بشىء عن ماضيها ، فقد كان مبهما غامضا . وقال بعض الناس انها تزوجت ـ وهى بعد فى صدر الصبا ـ من نبيل اسبانى أحضرها الى فرنسا ، ثم لم يلبث أن هجرها وعاد الى وطنه .. وزعم بعض آخر انها ولدت فى أسرة مدقعة الفقر ، فكفلها شاب من علية القوم ، وعنى بها ، ثم هجرها فى « تولوز » .. **على أن الفريقين أجمعا على أمر واحد بشأنها ، هو انها كانت وحيدة فى تلك المدينة ، لا حول لها ولا سند ولا عائل ، فلم تجد موردا للعيش غير جمالها !** فقد كانت ـ بحكم أصلهـا وموطنها ـ ذات سمرة فاتنة ، وعينين مخمليتين ، وشعر بديع مسترسل ، وقوام سمهرى تناسقت أجزاؤه أكمل تناسق ، و .. ومفاتن لا قبل لاحد بالصمود أمام سحرها !

ولم يخذلها هذا الجمال الخلاب ، فما ان رآها العالم الدينى الاستاذ « بيردو » حتى طرح عنه كل زهد وتقشف ، وآلى على نفسه أن يتخذها عشيقة . وليس من شك فى أن غيره قد توصلوا الى عين ما توصل اليه . ثم قدر للقاضى الاستاذ « دى جايرو » أن يلتقى بها فى احدى نزهاته ، فتحرق شوقا الى أن يحظى بهـا ، ونسى لاول وهـلة كل دواعى الشرف

والكرامة وجلال المقام وحرمة منصبه القضائى .. **بل نسى انه كان ينحدر من أسرة جليلة ، وانه كان جدا ذا احفاد ! .. واستطاع أن يغدو بدوره خليلا لها !**

ولا حاجة بنا الى أن نذكر أن حسناء تحظى بكل هذا العدد من المتهافتين على مفاتنها ، كانت خليقة بأن تلزم الحذر والمصانعة والدهاء ، ومن تنظيم علاقاتها بخلانها ، وأن توحى الى كل منهم بأنه الوحيد الاثير بجمالها .. الى أن قدر للمصادفة الخبيثة أن تجمع الاستاذين دى جايرو وبيردو أمام بابها ، فى ذلك الموقف المحرج !

اتفاقية « جنتلمان » !

• **وأتاح** الصمت الذى سيطر على الرجلين فرصة لكى يعمل فيها كل منهما فكره . ولو كانا فى شبابهما ، أو لو كانا من أولئك السادة السريعى الاندفاع والتهور ، لانقض كل منهما على عنق الآخر .. ولكنهما كانا قد تجاوزا السن التى تسمح لهما بمثل هذا النزق الطائش ، وبلغا من الحكمة والتجربة مايدعوهما الى ان لايحملا أى شىء محمل اليقين ، وأن لا يغترا بأى أمر ، بل يراعيا – أولا ، وقبل كل شىء – ما يفرضه عليهما منصبا من مظاهر يجب أن يحترماها ، ومن نأى عن أن تحوم الفضائح حولهما ، ومن حرص على أن لا يصبحا أضحوكة أهل (تولوز) .

وكان الاستاذ بيردو أول من فطن الى كل هذه الاعتبارات ، فهم بأن يتكلم . ولكن الاستاذ دى جايرو كان قد وصل الى التقدير ذاته ، فسبقه الى الكلام قائلا : « يجب أن نهدأ ، وأن نكون على وئام وسلام . أما وقد قدر أن تكون لنا – ونحن فى

هذه السن – عشيقة واحدة ، لها كل هذا الجمال الممتع ، **فخليق بنا أن نجعل لها الاعتبار الاول ! .. فلنتجاهل الامر ، وليستمتع كل منا بمحاسن « فيولانت » فى الايام المحددة له ، ولنبق بعد ذلك صديقين كما كنا طوال عمرنا ! »**

وهنا بسط بيردو يديه معا لصديقه، وهو يقول : « ماأروعه من قول ! أحسنت وأصبت !.. لنعتبره اتفاقا بيننا ، ولندع حبيبتنا الليلة تخلو الى نفسها ، ونذهب الى دارى فنحتفل بهذا الاتفاق ، ونسكب قدرا من النبيذ نروى به غرامنا ! » .. وتأبط كل منهما ذراع صاحبه ، وانطلقا فى ود وأخاء صوب جسر (كومانج) .

وكان هذا خير حل ، بلا مراء. فلم يعد الصديقان يتصادفان أمام البيت ذى الشرفات البديعة الزخرف ، منذ ذلك اليوم – وان لم يكف كل منهما عن التردد على الآنسة دى شاتو فى الايام المخصصة له ! – وظلت الفاتنة السمراء تنعم بسخائهما وكرمهما ، وهى تجهل الاتفاق الذى تم بينهما ، وتحرص على امتاع كل منهما بكل ما أوتيت من فن ، وعلى ايهامه كذبا بأنه الخليل الاوحد !

البحث عن زوج .. يغمض عينيه !

• **وسارت** الامور سهلة ميسورة ، الى أن كانت الاسابيع الاولى من سنة ١٦٠٨ ، اذ اجتمع الصديقان العاشقان الكهلان فى دار القاضى ، وراحا يتحدثان – فى صراحة – عن فاتنتهما ، واذا بفكرة تقفز الى رأسيهما معا فى آن واحد : **أن يزوجا « فيولانت » !**

وقد تثير مثل هذه الفكرة دهشة القارىء الحديث ، **ولكن تقاليد علية القوم – فى ذلك العصر – كانت تبوىء العشيقة المتزوجة مكانة أفضل من مكانة العشيقة غير المتزوجة ، حتى ان الملوك كانوا يعنون باختيار أزواج من حاشيتهم لمن كن يستهوينهم من الحسان ، فكانوا بذلك قدوة لرعاياهم ! ..**
ولماذا لا نتصور أن عواطف القاضى والاستاذ الجامعى نحو « فيولانت » كانت بعيدة عن الانانية ؟ .. أما كان من الوفاء وصدق العطف أن يؤمنا مستقبلها ، وان يجودا لها بصداق مغر يكفل لها زوجا ؟

ومهما يكن من الامر ، فان الصديقين اتفقا فيما بينهما على أمر زواج فاتنتهما ، فعكفا على دراسته معا فى ذلك المساء .. وساهما معا فى توفير صداق طيب مشرف ، وفى تدبير كل شىء ، عدا أمر واحد : من يكون الزوج المرجو ؟ .. وقضيا وقتا طويلا فى استعراض الرجال ، دون ان يستقر رايهما على أحد .. **كان من الضرورى فى الزوج المنشود أن يكون ذا مكانة لابأس بها ، وأن يكون فقيراً ، معدما ، لا يحفل بمصدر حظه السعيد ، ويستطيع أن يجيد اغماض عينيه عن مخدع زوجته !**
واستطاع الاستاذ جايرو – فى النهاية – أن يتوصل الى زوج مثالى ، بمعونة السيد « فرانسوا ايسبالدى » ، الكاتب فى المحكمة .. فقد كان السيد ايسبالدى نفسه من المعجبين بالبرتغالية السمراء ، وان لم يطلع القاضى على علاقته بها . وكان على دراية بالشخصيات ، فراح يستعرض من كانوا فى جعبته ، ثم اختار من بينهم محاميا يدعى « بيير سان رومان »،

من أبناء بلدة (جيمون) ، التى كانت تقع على حوالى خمسة عشر فرسخا من (تولوز) .. وكان « بيير » محاميا خاملا ، لم يلق نجاحا يذكر فى المدينة الكبيرة ، فآب الى مسقط رأسه، وأخذ يتعيش من الدخل البسيط الذى كانت تدره عليه القضايا الصغيرة هناك، والذى لم يمكنه من أن يجمع ثروة ما .

أما من النواحى الاخرى ، فقد كان « بيير » يعيش أرمل ، ولم يبد شيئا من الدهاء ولا كان بارزا فى حلبة الهوى .. **وفيما عدا ذلك فانه كان فى الاربعين من عمره ، لم يؤت شيئا من جمال المنظر يخشى معه من أن يكتسب قلب الغانية .**

وما أن اقر الاستاذ بيردو هذا الاختيار ، كما أقره جايرو ، حتى استدعى « بيير » من (جيمون) ، فتلقاه القاضى مبديا عطفا سابغا ، ممنيا اياه بأنه جدير بأن يلقى منه عونا يمكنه من أن يلمع فى ساحة القضاء ، وأن يغدو محاميا ناجحا . ثم أخذ يشير الى الطريق السوى للنجاح .. **وبعد تلميحات عابرة ، خرج عن التكتم ، ونصحه بالزواج . ثم تمادى فى ابداء العطف عليه ، فذكر له أنه يعرف حسناء ذات صداق خليق بأن يعينه على أن يشق سبيله !** ثم أردف قائلا :

« .. وفوق كل هذا ، فان الزوجة التى أحدثك عنها فى نضرة الشباب ، وفى ذروة الجمال ، وقد أوصانى بها أحد أصدقائى عندما حانت منيته .. وبوسعى يا بنى أن أعرفك بها ، فاذا لقيت منك اعجابا ، فلست أرتاب فى أنها ستنزل عند رغبتى ، وتقبل أن تكون زوجة لرجل كفء مثلك ! »

وبالرغم من عطف القاضى الكهل وحفاوته ، ومن المغريات البادية فيما عرضه ، فان المحامي الريفي كان حذرا بطبعه ،

فلم يبادر الى الموافقة ، بل آثر أن ينتظر ريثما يستشير صديقه « ايسبالدى » ، وريثما يتعرف الى السيدة .. على انه لم يكد يرى « فيولانت » حتى بهر بحسنها ، وتعلق بها .

وكانت « فيولانت » قد حبذت الفكرة ، لما انطوت عليه من فوائد ماكانت لتغيب عنها : فهى كفيلة بأن تضمن لها رعاية الشيخين الرفيعى المكانة ، بعد أن أسفرا لها عن سرهما . كما أن الصداق كان فى ذاته ثروة مغرية .. فضلا عن أن الزواج كان خير كفيل لمستقبلها ، ولم يكن ليحرمها — فى الوقت عينه — من أن تظل على علاقاتها بالمفتونين بحسنها ، بل انه كان يسبغ على هذه العلاقات ستارا مستحبا !

وهكذا سار المشروع قدما ، وتم توقيع العقد لدى موثق عقود الزواج فى أول مايو سنة ١٦٠٨ ، ثم احتفل بالقران فى كنيسة « سان سرنان » العريقة . **وحضر الحفل كثير من أصدقاء العروس ، كان « جايرو » و « بيردو » فى مقدمتهم !** وقد شاء القاضى الماكر أن يمعن فى تمثيل دوره ، فاقترب من « بيير » ، وقال له فى لهجة الوصى المعنى بوديعته : « أرجو أن توفق الى اسعادها » . فقال المحامى الريفى : « اطمئن ، فان لك أن تعول على فى هذا الامر ! »

فراق .. ولوعة .. واستغاثة !

• **ولم** يكن ثمة مناص للقاضى الشيخ ، وزميله أستاذاللاهوت، من أن يحتملا لوعات فترة من الزمن تكون فيها فاتنتهما لزوجها وحده ، سيما وقد شاء المحامى أن يقضى شهرالعسل في مسقط رأسه ، فنقل زوجته الي دار الاسرة في (جيمون) ،

ولم يكن يخفف من أسى العاشقين المكتهلين سوى أن المحامى ما كان ليستطيع أن يغيب عن (تولوز) طويلا ، بعد الامانى التى مناه بها القاضى ، **وان « فيولانت » لن تلبث أن تعود فتغدق من سحر مفاتنها على عاشقيها من جديد . وهكذا راحا يعللان نفسيهما ، ويستحث كل منهما صاحبه على الصبر !**

ومر شهر ، ثم بدأ القلق يراودهما ، سيما بعد ان انهى اليهما قادم من (جيمون) أن « بيير سان رومان » قد استأنف حياته الاولى فى بلدته ، ولم يكن يبدو عليه انه يعتزم النزوح عنها !

وفيما كان « جايرو » و « بيردو » يضربان أخماسا فى أسداس ، اذا برسول يفد على القاضى برسالة من «فيولانت» ، كتبت فيها : « لماذا أغريتمانى بهذا الزواج ؟ .. اننى الآن اتعس النساء ، فان هذا الزوج الذى رزأتمانى به ، والذى لا أحبه بقدر ما هو مدله بحبى، **لا يكف عن ابداء أفظع ألوان الغيرة ، حتى انه ليحبسنى فى داره ، ويحصى على حركاتى، ولا يكف عن صب لومه وتأنيبه على رأسى لاتفه الاسباب**. بل انه فى لحظات الهياج ، لم يتورع عن أن يرفع يده على .. وأبدى ما يوحى بأنه قمين بأن يقتلنى لو انه شهدنى أتحدث الى أى رجل غريب ! لشد ما أنا خائفة ! .. ترى ما الذى كتب لى ؟ .. لقد اخذ زوجى يصلح داره المتداعية ، من الصداق الذى تسلمه ، وهو يستبقينى فى هذه الدار حبيسة ، ولم أعد أملك سوى البكاء والنحيب . **اننى أضرع اليكما بما بيننا من حب أن تخفا الي معونتي ، وان تعملا على انقاذي من يدي**



هذا الجلاد ! »

وأسرع الاستاذ جايرو الى اطلاع صديقه الاستاذ بيردو على هذه الرسالة . واستبد بهما الجزع ، فراحا يفكران فى الامر ، وقد اشتد سخطهما على نفسيهما اذ أنهما كانا – بغبائهما – السبب فى كل ماجرى .. على ان سخطهما على المحامى الريفى كان أشد وأعتى ، اذ رأيا انه غرر بهما ، واعتبرا عمله استخفافا بشأنهما ، وسخرية منهما .. ألم يمنه القاضى بمستقبل زاهر ، باهر ؟ .. ألم يغدق عليه من العطف والايثار ألوانا ؟ .. **فكيف اذن يضرب بكل هذا عرض الحائط ، ويصر على الاقامة فى بلدته ، ويستبقى الحسناء التى زوجه اياها بعيدة ، وهو الذى أفهمه انه كان وصيا عليها ، حريصا على الاطمئنان على سعادتها ؟**

وكادا يجنان وهما يتصوران محنة « فيولانت » ، ولكن ..

ما الذى كانا يملكان أن يفعلاه ؟ .. أيرفعان امره الى القضاء ؟ وبأى حق وسلطان ؟ .. أيختطفان السمراء الفاتنة ويخفيانها فى (تولوز) ؟ وكيف ؟ .. ثم ، أية فضيحة تحيق بهما لو أن أمرهما انكشف !

وفيما كانا فى حيرتهما وأساهما ، أقبل الرسول من (جيمون) بعد أيام ، يحمل رسالة جديدة من « فيولانت » .. وكانت الرسالة – فى هذه المرة – مقتضبة ، ولكن كل كلماتها كانت بمثابة حمم انصبت على رأسى الشيخين المفتونين : **« لم أعد أطيق صبرا على هذا العذاب . أتوسل اليكما أن تفعلا أى شىء – مهما يكن – لتخليصى من هذا الزوج الذى يوسعنى تعذيبا ! »**

أى شىء مهما يكن ! ؟ .. ما أيسر كتابة هذى الكلمات ، ولكنها لا تهدى الى حل ما ! .. وشيئا فشيئا ، أخذت اللهفة والجزع والحيرة تفقد الشيخين عقليهما . ولم يكن لاستاذ اللاهوت عهد بمثل هذه المعضلة ، ولكن القاضى كان على النقيض منه . فكم من قضية صادفته ، ففصل فيها بين زوجين ، على ضوء شكايات أحدهما من الآخر ! .. ولكن هذه القضية لم تكن من هذا القبيل . اذن ، فكم من قضية حكم فيها بتحرير زوج – أو زوجة – لان زوجته ، أو زوجها ، قد اختفى ، وما من أحد يعلم له مصيرا !

آه ! .. ومال القاضى على زميله ، فهمس اليه : **« ليس ثمة من وسيلة مضمونة لخلاص فيولانت من العذاب ، سوى واحدة : أن يختفى سان رومان ! »** .. فقال أستاذ اللاهوت : « هذا هو الرأى الصواب ، ولكن .. بأية طريقة ؟ » . ولم

يجب القاضى ، بل اكتفى بأن أشار بيده فى الهواء ، ممثلا حركة يد تهوى بخنجر ! فصاح بيردو : « ويحك ! ما أرى فى طاقتك أن تقوم بعمل كهذا ! » . وأجاب القاضى : « حقا ! ولكن العثور على من يقوم به ليس بالامر العسير ! »

ولاذا بالصمت ، اذ لم يجسرا على المضى فى مثل هذا الحديث الخطير الرهيب .. ثم افترقا دون أن يبتا فى الامر . على أن الفكرة راحت تلح عليهما أياما ، فتوهن من ترددهما ، وتبدد مخاوفهما ، وتهدىء من ثائرة ضميريهما . حتى اذا أيقنا — فى النهاية — من أنها السبيل الاوحد لانقاذ محبوبتهما وردها الى أحضانهما ، شرعا يفكران فى تنفيذها !

كل يسعى الى .. ليلاه !

• ومرة أخرى ، فضفض الاستاذ جايرو بأسراره ونواياه لفرانسوا ايسبالدى . ومرة أخرى كذلك ، وافق ايسبالدى على أن يعاونه ، سيما وانه كان يطمع فى مغنم لنفسه : ذلك انه كان من المعجبين بالبرتغالية السمراء كما أوردنا ، بيد أنه لم يكن قد ظفر منها بمأرب . وقد طمع — عندما اشترك فى اختيار زوج لها — فى أن يجعل منها بعد ذلك صديقة لزوجته ، فيزداد مابينهما من قربى ، ويحظى بما كان يهفو اليه ! **أما وقد انتهى الزواج الى ما انتهى اليه ، فقد حدثته نفسه بأن يسعى جاهدا لانقاذ « فيولانت » ، فيكون له صنيع لديها يمكنه من مأربه** .. وبدا له — هو الآخر — ان اختفاء « سان رومان » من حياة الغانية أمر لابد منه !

وشاءت المصادفات أن تجمعه — فى تلك الاثناء — بشاب

لم يكن يقل عنه قلقا على « فيولانت » ، وسخطا على زوجها، وتحرقا الى انقاذها مهما يكن الثمن .. **فلقد كان هو الوحيد الذى احبته الغانية السمراء حبا خالصا .. احبته لشبابه الغض ، وفتوته الموفورة ، وملاحته الباهرة ،** دون ان ترجو منه مالا أو نفعا ماديا ــ كما كانت ترجو من عشاقها الآخرين ــ اذ أنه لم يكن سوى .. طالب فقير يدرس فى الجامعة . ذلك هو « انتوان كاندولا » .

وتبادل « ايسبالدى » و « كاندولا » الثقة ، وصارح كل صاحبه بما فى صدره ، فلما تبينا ان غايتهما واحدة، لم يسمحا للغيرة بأن تثير كلا منهما على الآخر ، بل شعرا بأن وحدة الغاية خليقة بأن تقرب بينهما ، وان الكراهية المشتركة التى ساورتهما نحو « سان رومان » قمينة بأن تحملهما على أن يتعاونا فى سبيل ازاحته عن الطريق .

وهكذا ضمت (تولوز) أربعة رجال طووا صدورهم على حب طاغ لفيولانت ــ ورغبة جامحة فى انقاذها .. وعلى كراهية لزوجها ، وتلهف على التخلص منه : كهلين لم يؤتيا قوة على أن يعملا بنفسيهما ، ولا كانت مكانتهما الاجتماعية تسمح لهما بذلك ، ولكنهما أوتيا مالا لا يضنان به فى سبيل الغانية السمراء .. وشابين أوتيا القوة والجرأة .. الجرأة على ان يرتادا مواخير المدينة ، وأن يتصلا بحثالة القوم . وكان « ايسبالدى » بحكم عمله على معرفة ببعض الاشقياء ، فاختار أشدهم بأسا ، وأغلظهم قلبا ، وكان معروفا باسم « ذى الذراع الحديدية » ، واختلى به بعيدا عن الانظار والاسماع ، وأفضى اليه بالخطة التى رسمها مع « كاندولا » ،

دون أن يذكر اسمى العاشقين الكهلين اللذين رصدا مبلغا ضخما لهذه المغامرة .

وتدبر « ذو الذراع الحديدية » الامر ، ثم قرر أن يستعين باثنين من زملائه . . وأصبحت الخطة معدة ـ بأدق تفصيلاتها ـ للتنفيذ ، فلم يبق سوى استدعاء « سان رومان » الى (تولوز) . وقد اضطلع القاضى بهذا الجزء من المؤامرة ، فكتب الى المحامى الريفى متذرعا بحرصه على مستقبله ، زاعما أن ثمة وريثا واسع الثراء قد اقحم فى نزاع مع أقارب له أرادوا ان يشاطروه ثروته .. وابدى له رغبته فى أن يتولى هو الدفاع عن ذلك الوريث .

ينصبون له الفخ !

• **واذ** تلقى « سان رومان » الرسالة ، أوحت اليه غريزة خفية بأن يرفضها ، ولكن « فيولانت » راحت تستحثه على القبول ، وتغريه بما قد يلقاه من نجاح .. ومع انه لم يكن يثق فى صدق اهتمامها ، الا انه شاء أن يتحرى حقيقة الامر ، فان كان وراءه خير حقا ، لم يفوته على نفسه .

وهكذا غادر « سان رومان » بلدة (جيمون) فى ساعة جد مبكرة من صباح اليوم الثالث من يوليو ، ميمما شطر (تولوز)، على صهوة بغل ! .. حتى اذا بلغها ، سعى أولا الى شارع (دى فيلاتييه) ، حيث كان القاضى « جايرو » يقيم . وتلقاه القاضى مرحبا ، وأصر على أن يستبقيه للعشاء ، ودعا الاستاذ « بيردو » الى أن يشاطرهما المائدة ، فكان وجود هذا حجة أعفت القاضى من أن يتحدث الى «سان رومان» عن القضية ،

وان وعده بأن يطلعه على ملفها ومستنداتها فى يوم آخر .

وفى اليوم التالى، استضاف ايسبالدى المحامى الريفى. وفى اليوم الثالث دعاه أستاذ اللاهوت الى مائدته .. وعجب « سان رومان » لهذه الحفاوة البالغة . وكان كلما تساءل عن القضية ، قيل له فى رفق أبوى : « فيما بعد ! .. لا يزال فى الوقت متسع ! » .

وأخيرا ، أقام القاضى حفلة عشاء — فى اليوم الثامن من يوليو — دعا اليها زملاءه الثلاثة ، كما دعا المحامى الريفى . حتى اذا مدت المائدة ، تبين الجميع أن أستاذ اللاهوت لم يحضر .. ولم يدر أحدهم لذلك سببا . على ان غيابه لم يذهب برواء الأطعمة التى كانت من أشهى الالوان ، والنبيذ المعتق الذى أريق دون حساب .

وراح التولوزيون الثلاثة يبالغون فى الحفاوة بضيفهم الريفى ، **فكلما ملأوا كؤوسهم مرة ، ملأوا كأسه مرتين .. حتى اذا رفعت المائدة أخيرا ، أحس « سان رومان » بأن معدته قد اكتظت ، ورأسه قد خوى .. ودب فى أوصاله خدر مستعذب** . وتظاهر الآخرون بأنهم يشعرون بالشعور ذاته ، فاقترح أحدهم أن يخرجوا ليتمشوا فى الهواء الطلق ، عسى أن يرد اليهم نسيم الليل نشاطهم .

ولقى الاقتراح استحسانا ، فانطلقوا جميعا الى ضفة نهر (الجارون) ، وراحوا يسيرون على مهل مستروحين الهواء العليل ، حتى بلغوا أقصى أطراف المدينة ، ولم يبق بينهم وبين طلائع الريف سوى دير شاهق الاسوار، قام وسط الظلام رمزا مبهما للعزلة الموحشة !

وفجأة ، خرج عليهم من أطواء الظلام ثلاثة أشخاص انقضوا عليهم على غير توقع .. وأسلم « ايسبالدى » و « كاندولا » سيقانهما للريح ، وتبعهما «جايرو» بكل ما أسعفته الشيخوخة من قوة .. وبقى المحامى الريفى التعس ، الذى كان الطعام والشراب لايزالان يثقلان حركاته ، فلم يستطع أن يفلت من « ذى الذراع الحديدية » وزميليه !

وفى الصباح التالى ، وجدت ــ على مقربة من الدير ــ جثة رجل مزقت صدره الخناجر ، بسبع عشرة طعنة .. وسرعان ماظهر أنها جثة « بيير سان رومان » ، المحامى الذى وفد من (جيمون) .

العدالة تقتص من منتهكيها !

• **وكان** من الممكن أن تكون الجريمة كاملة بمعنى الكلمة ، وأن لا يصل أحد الى مرتكبيها ، لولا ان القدر كان لهم بالمرصاد ، وقد أبى أن يروح دم المحامى الريفى هدرا ! .. نعم ، كان من الجائز أن يطوى السر فى صدر الليل ــ برغم ما هو معروف من أن السر اذا تجاوز اثنين أصبح معرضا للافتضاح ــ لولا ان العدالة كتب لها أن تقتص من منتهكيها .. فبينما كان « ذو الذراع الحديدية » يجرى ــ بعد ان أتم مهمته ــ اذا به يصادف احدى « داوريات » الشرطة ، فراب أفرادها أمره ، سيما وانه كان من أشقياء المدينة المعروفين ، فألقوا القبض عليه .. **واذا بهم يكتشفون بقعة من الدم على ثيابه ، فقرروا استبقاءه فى أسرهم الى ان يستوثقوا من امره .**

كذلك قدر لبعض رجال الشرطة أن يصادفوا «ايسبالدى» وهو يجرى فى طرقات المدينة مضطربا ، بادى الوجل . فلما

استوقفوه اشتد ارتباكه .. ولما سألوه بدت اجاباته مثيرة للريب ، فسجن هو الآخر رهن التحقيق .

وعندما اكتشفت جثة الضحية فى الصباح التالى ، لوحظ أن حافظة نقود المحامى لم تمسها يد ، **فأثار هذا دهشة وتساؤلا : اذا لم تكن السرقة هى الباعث على الجريمة ، فما هو الباعث اذن ؟ .. وبدا ان ثمة سرا غامضا يكتنف الحادث.**

واتجهت أنظار المحقق ــ السيد دى سيجلا ــ الى « ذى الذراع الحديدية » ، والى « ايسبالدى » ، فان الظروف التى اعتقل فيها كل منهما كانت تدعو الى الشك فى أمره . ولكن الاسئلة التى وجهها المحقق الى كل منهما لم تساعد على اجلاء السر .. فهل ينتهى الامر عند هذا الحد ؟

لا ، فقد كان لدى السلطات ــ فى ذلك العهد ــ من وسائل العنف والقسوة ما يفك عقدة أى لسان ! .. وما ان جربت هذه الوسائل مع « ذى الذراع الحديدية » ، حتى اتهم « ايسبالدى » بأنه المحرض . فلما جربت مع « ايسبالدى » لم يلبث أن اتهم ــ بدوره ــ الاستاذ بيردو بأنه مصدر التحريض .. وكان « بيردو » متغيبا عن المدينة ، ولعل هذا كان سبب عدوله عن حضور مأدبة العشاء .. ولعلها كانت حيلة ماكرة منه ، ليكون بعيدا عن مسرح الجريمة ، فلا تتجه اليه أية شبهة !

وكان من الجائز أن تفلح حيلته ، فان المحقق تردد ازاء غياب الرجل عن المدينة ، وازاء مكانته كأستاذ جامعى ، وأستاذ لعلم اللاهوت بالذات . **ولكن رئيس المحققين ــ السيد نيكولا دى فيردون ــ لم يشأ أن يسمح لاى اعتبار بأن يفوت**

على السلطات أية فرصة قد تفيد العدالة .. وكان « دى فيردون » معروفا بحزمه ، وبنزاهته ، وبأنه لم يكن يعترف بأى مركز أو سلطان — فى سبيل العدالة — ولا كانت تأخذه بأى مشتبه فى أمره رحمة ولا شفقة . فلم يتردد فى أن يأمر بالقاء القبض على أستاذ اللاهوت بمجرد عودته الى المدينة .

التعذيب يطلق الالسنة !

• **ووقف** « بيردو » أمام المحقق فى وقاره الدينى والعلمى، متذرعا بمكانته ، محتجا بمنصبه ، مراوغا متشبثا بمراوغته . فلم يتورع السيد « دى فيردون » عن أن يسلمه الى الجلاد الذى أوسعه تعذيبا ، حتى انطلق لسانه فى النهاية ، فاذا به يكشف عن علاقته بفيولانت ، وعن علاقة جايرو بها ، وعن الاتفاق الذى جرى بينه وبين القاضى الكهل ، وما انتهى اليه رأيهما من ضرورة اختفاء المحامى الريفى لكى يستعيدا خليلتهما ويخلو لهما الجو معها !

واذ اعترف « بيردو » بكل هذا ، تجلى الحافز على الجريمة ، ورفعت الاوراق الى السيد « دى فيردون » ، فأمر بالقاء القبض على « جايرو » — فى ١٨ أغسطس — وعلى «فيولانت»، بعد ذلك بثلاثة أيام .. وسرعان ما ضمت جدران سجن « شاتو — ناربونيه » العتيق كافة الذين اشتركوا فى الجريمة .

وشاع نبأ الفضيحة فطبق أرجاء المدينة ، وتجاوزها الى الاقليم الذى كانت حاضرته .. وزاد من وقعها على النفوس ان كهلين وقورين — مثل القاضى وأستاذ اللاهوت — قد سمحا لنفسيهما بأن يهويا الى درك الاجرام ، حبا فى سواد عينى

غانية سمراء لم تكن سمعتها فوق الشبهات ، وذهبا فى غيهما الى درجة التغاضى عن جلال منصبيهما ، والتعامل مع أشقياء مجرمين مثل « ذى الذراع الحديدية » وزميليه ، من أجل بلوغ مآربهما المرذولة !

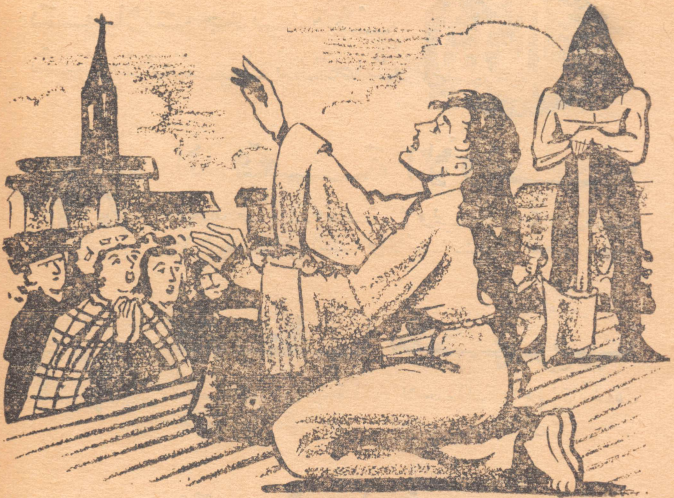
ولم يعد من حديث للقوم سوى هذه القضية. وثار شعور الرأى العام ، فلم يبد أحد أدنى عطف نحو المتهمين فيها .. وكان القاضى وأستاذ اللاهوت أكثر هؤلاء المتهمين نصيبا من السخط العام !

وعرضت القضية أمام المحكمة فى ٢٠ ديسمبر ، فظلت الجلسات تتعاقب حتى نهاية يناير سنة ١٦٠٩ .. ثم صدر الحكم باعدام المتهمين جميعا ، ليكونوا عبرة للناس !

الندم والاستغفار .. بعد فوات الاوان !

• **وكان** « بيردو » أول من سيق الى الاعدام — فى ميدان (سان جورج) — فى ١٥ فبراير . وقد ظل حتى اللحظة الاخيرة يلقى الحكم والمواعظ الدينية .. وعندما طافت به عربة مكشوفة أرجاء المدينة ، قبل أن يقاد الى الميدان ، لم يكف عن الخطابة فى الجموع التى احتشدت لمشاهدته ، مذكرا اياها بتعاليم الدين ، وعواقب الغى والاجرام ، معربا عن ندمه ، مستغفرا لذنبه !

وتبعه الاستاذ « جايرو » فى اليوم التالى ، فكان على النقيض منه : اذ ظل صامتا ، واجما ، متشبثا بوقاره ، حتى وهو يسلم رأسه لسيف الجلاد ! وتلاه فى الدور كل من « ايسبالدى » و « كاندولا » .. وكانت الغانية البرتغالية



السمراء ــ ذات السحر الذى لا يقاوم ــ هى آخر من صعد منصة الاعدام من المتهمين .. ولعل علاقتها ببيردو كانت قد أكسبتها بعض خصاله ، **فقد أبت الا أن تخطب القوم قبل أن يطيح سيف الجلاد برأسها ، وراحت تعظ النساء وتحذرهن من ان يقدمن على خيانة أزواجهن !**

و .. وأسدل الستار على مأساة من مآسى الهوى والاجرام ! .. مأساة حبكت خيوطها ونفذت ، من أجل عينى غانية سمراء !



مرتا

قصة من الأدب اللبناني

للكاتب الكبير : جبران خليل جبران



حنين .. الى الأدب الرصين !

عزيزى القارىء ..

قبل أن تثور وتتهمنى بالرجعية ، والجمود ، وعدم الاستجابة لمقاييس الادب « الواقعى » المتطور ــ كما يسميه الزملاء المحدثون من أدباء الجيل الصاعد ــ أو الادب الاخبارى ، «التلغرافى» ، بل «الصاروخى» ، كما أسميه أنا وأبناء جيلى الحريصون على حفظ « التوازن » بين القديم والجديد ..

أقول : قبل ان تثور على ما يحمله اليك هذا العنوان من حنين الى الادب الرصين ، الرزين ، الدسم .. أدب الربع الاول من هذا القرن ، السابق لجيلنا ، الذى لحقنا بأذياله ونحن فى سنوات دراستنا الابتدائية والثانوية .. أدب المقالة ، والقصة «الادبية» ، والتأمل ، والاسهاب .. أدب المنفلوطى ، والرافعى ، والبشرى ، وجبران ، والزيات .. الى آخر ذلك الرعيل الاول من ادباء هذا القرن ..

قبل ان تثور على هذا الحنين ، أرجو ان تسائل نفسك : ألا تحس ما أحسه فى « بعض » الاحيان ، من شوق الى تقليب صحائف من هذا الادب الذى مضى عهده وانقضى ؟ .. انى اذ أتشجع وأشجعك على الاعتراف ــ بل والمجاهرة ــ بهذا الشوق أو

الحنين ، لأ اطالبك بأن تركب الجمل فى عصر الطائرة « الكارافيل » ، وانما امارس واياك رياضة لن يكف الانســان عن ممارستهــا حتى فى عصر الطيران الى القمر : رياضة السير على القدمين وحيدا ، مستغرقا فى تأملاتك ، فى ليلة متمرة !

فاذا زعمت انك « أرقى » ، وأكثر اخلاصا لروح العصر ، من ان تسير فى نزهة « على قدميك » ، بعد العشاء .. ففى وسعك عنـدئذ ألا تستسيغ متعـة قراءة هذا النموذج من أدب القصة القصيرة عنـد جبران .

وقبل أن تطالع القصة ، يحسن ان تقرأ شيئا عن مؤلفها ، الأديب اللبنانى الكبير :

جبران خليل جبران .. فى سـطور

١٨٨٣ – ١٩٣١

- **ولد** فى بلدة (بشرى) بجبال لبنان فى عام ١٨٨٣ .
- **تلقى** دروسه العربية فى معهد الحكمة ببيروت .
- **سـافر** الى أميركا ، فعاش فى مدينة بوسـطن (ولاية نيويورك) حتى عام ١٩٠٨ .
- **ثم** أبحر الى فرنسا حيث درس الفن على يدى المثـال الشهير « رودان » .
- **وعاد** الى نيويورك ، فانصرف الى الكتابة والرسم .

ودرس اللغة الانجليزية فأتقنها حتى أجاد الكتابة فيها . ومن اشهر مؤلفاته بهذه اللغة ـ وان نقل اكثرها الى العربية فيما بعد ـ هذه الكتب المشهورة : النبى . السابق . يسوع ابن الانسان . المجنون .

• **أما** مؤلفاته بالعربية ، فأهمها : رسالة فى الموسيقى . الارواح المتمردة . الاجنحة المتكسرة . عرائس المروج . المواكب . دمعة وابتسامة . العواصف .

• **توفى** فى مدينة (بوسطن) فى عام ١٩٣١

• **والقصة** التالية احدى قصص كتابه المشهور : « عرائس المروج » .

مرتا .. البانية (١)

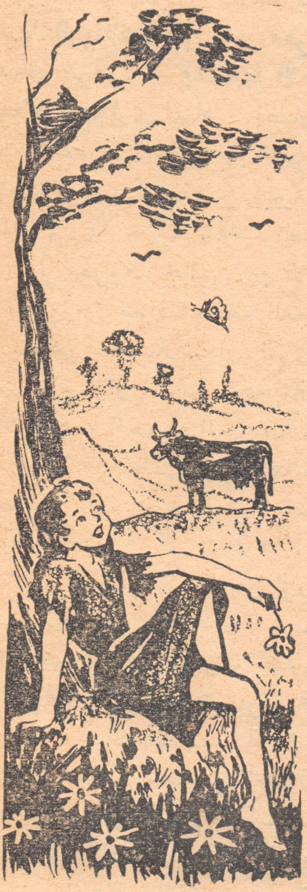
— ١ —

مات والدها وهى فى المهد . وماتت أمها قبل بلوغها العاشرة . فتركت يتيمة فى بيت جار فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الارض وثمارها فى تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة .

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والحور . وماتت امها ولم تترك لها سوى دموع الاسى وذل اليتم . فباتت غريبة فى أرض مولدها . وحيدة بين تلك الصخور العالية والاشجار المتشابكة . **وكانت تسير فى كل صباح حافية القدمين ، رثة الثوب ، وراء بقرة حلوب ،**

---

(١) نسبة الى (بان) ، احدى قرى جبال لبنان .



الى طرف الوادى حيث المرعى الخصيب ، وتجلس فى ظل الاغصان مترنمة مع العصافير ، باكية مع الجداول ، حاسدة البقرة على وفرة المأكل ، متأملة نمو الزهور ورفرفة الفراش .
وعندما تغيب الشمس ويضنيها الجوع ، ترجع نحو ذلك الكوخ وتجلس مع صبية وليها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت . ثم تفترش القش اليابس مسندة رأسها بساعديها ، وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نوما عميقا لا تقطعه الاحلام ولا تليه اليقظة . وعند مجىء الفجر ينتهرها وليها لقضاء حاجة فتهب من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه .

كذا مرت الاعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابى

والاودية البعيدة . فكانت تنمو بنمو الانصاب . **وتتولد فى قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر فى أعماق الزهرة . وتتنابها الاحلام والهواجس مثلما تنتاب القطعان مجارى المياه .** فصارت صبية ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تلق بها المعرفة بذورا ولا مشت عليها أقدام الاختبار ، وذات نفس كبيرة طاهرة منفية بحكم القدر الى تلك المزرعة حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظل اله غير معروف جالس بين الارض والشمس .

نحن من صرفنا معظم العمر فى المدن الآهلة ولا نكاد نعرف شيئا عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية فى لبنان ، قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة حتى نسينا او تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهرا ونقاوة ، تلك الحياة التى اذا ما تأملنا وجدناها مبتسمة فى الربيع ، مثقلة فى الصيف ، مستغلة فى الخريف ، مرتاحة فى الشتاء ، متشبهة بأمنا الطبيعة فى كل أدوارها . نحن اكثر من القرويين مالا وهم اشرف منا نفوسا . نحن نزرع كثيرا ولا نحصد شيئا . اما هم فيحصدون ما يزرعون . **نحن عبيد مطامعنا وهم أبناء قناعتهم . نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل ، وهم يرتشفونها صافية ..**

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول ، وقلبها شبيها بخلايا الوادى يرجع صدى كل الاصوات ... ففى يوم من ايام الخريف المملوءة بتأوه الطبيعة ، جلست بقرب العين المنعتقة من اسر الارض انعتاق الافكار من مخيلة الشاعر ، تتأمل باضطراب

أوراق الاشجار المصفرة يتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ، ثم تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويبست قلوبها حتى تشققت وأصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى أيام الثورات والحروب .

وبينما هى تنظر الى الزهور والاشجار ، وتشعر معها بألم فراق الصيف ، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادى ، **فالتفتت واذا بفارس يتقدم نحوها ببطء . ولما اقترب من العين وقد دلت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة ، ترجل عن ظهر جواده وحياها بلطف ما تعودته من رجل قط ،** ثم سألها قائلا : « قد تهت عن الطريق المؤدية الى الساحل فهل لك أن تهديني أيتها الفتاة ؟ » فأجابت وقد وقفت منتصبة كالغصن على حافة العين : « لست أدرى يا سيدى ، ولكنى أذهب واسأل وليى ، فهو يعلم . » قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد اكسبها الحياء جمالا ورقة . واذ همت بالذهاب أوقفها الرجل وقد سرت فى عروقه خمرة الشبيبة وتغيرت نظراته وقال : « لا ، لا تذهبى ! » فوقفت فى مكانها مستغربة ، شاعرة بوجود قوة فى صوته تمنعها من الحراك .

ولما اختلست من الحياء نظرة اليه رأته يتأملها باهتمام لم تفقه له معنى، ويبتسم لها بلطف سحرى يكاد يبكيها لعذوبته ، **وينظر بمودة وميل الى قدميها الحافيتين ومعصميها الجميلين وعنقها الأملس وشعرها الكثيف الناعم ، ويتأمل بافتتان وشغف كيف قد لوحت الشمس بشرتها وقوت الطبيعة ساعديها .** أما هى فكانت مطرقة خجلا لا تريد الانصراف ولا تقوى على الكلام لاسباب لا تدركها .

فى ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها الى الحظيرة . أما مرتا فلم ترجع . ولما عاد وليها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد فلم يجدها . كان يناديها باسمها فلا تجيبه غير الكهوف وتأوهات الهـواء بين الاشجار . فرجع مكتئبا الى كوخه وأخبر زوجته ، فبكت بسكينة طول ذلك الليل وكانت تقول فى سرها : رأيتها مرة فى الحلم بين أظافر وحش كاسر يمزق جسدها وهى تبتسم وتبكى !

هذا اجمال ما عرفته عن حياة مرتا فى تلك المزرعة الجميلة ، وقد تخبرته من شيخ قروى عرفها مذ كانت طفلة حتى شبت واختفت من تلك الاماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة فى عينى امرأة وليها ، وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح فى ذلك الوداى ، ثم تضمحل كأنها لهاث طفل على بلور النافذة .

— ٢ —

جاء خريف سنة ١٩٠٠ ، فعدت الى بيروت بعد أن صرفت العطلة المدرسية فى شمال لبنان . وقبل دخولى الى المدرسة قضيت أسبوعا كاملا أتجول مع أترابى فى المدينة متمتعين بغبطة الحرية التى تعشقها الشبيبة وتحترمها فى منازل الاهل وبين جدران المدرسة . فكنا اشـبه بعصافير رأت ابواب الاقفاص مفتوحة أمامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد . والشبيبة حلم جميـل تسترق عذوبته معميات الكتب وتجعله يقظة قاسية ، فهل يجىء يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبيبة ولذة المعرفة مثلما يجمع

العتاب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، والانسانية كتابه ، والحياة مدرسته ؟ هل يجيء ذلك اليوم ؟ **لا ندرى ، ولكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحى . وهذا الارتقاء هو ادراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .**

ففى عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل أتأمل العراك المستمر فى ساحة المدينة ، واسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل ، اقترب منى صبى ابن خمس يرتدى اطمارا بالية ويحمل على منكبيه طبقا عليه طاقات من الزهور . وبصوت ضعيف يخفضه الذل الموروث والانكسار الاليم قال :

ـ أتشترى زهرا يا سيدى ؟

فنظرت الى وجهه الصغير المصفر ، وتأملت عينيه المكحولتين بخيالات التعاسة والفاقة ، وفمه المفتوح قليلا كأنه جرح عميق فى صدر متوجع ، وذراعيه العاريتين النحيلتين ، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الاصفر الذابل بين الاعشاب النضرة . تأملت كل هذه الاشياء بلمحة ، مظهرا شفقتى بابتسامات هى أمر من الدموع ، تلك الابتسامات التى تنشق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ، ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا . ثم ابتعت بعض زهوره وبغيتى ابتياع محادثته لاننى شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلبا صغيرا ينطوى على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الايام ، وقل

من يهتم بمشاهدتها لانها موجعة . ولما خاطبته بكلمات لطيفة استأمن واستأنس ، ونظر الى مستغربا لانه مثل اترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالبا الى صبية الازقة كأشياء قذرة لا شأن لها ، وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر . وسألته اذ ذاك قائلا :

ـ ما اسمك ؟

فأجاب وعيناه مطرقتان الى الارض :

ـ اسمى فؤاد !

قلت : ابن من انت ، واين اهلك ؟

قال : انا ابن مرتا البانية .

قلت : واين والدك ؟

فهز رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد . فقلت :

ـ واين امك يا فؤاد ؟

قال : مريضة فى البيت .

تجرعت مسامعى هذه الكلمات القليلة من فم الصبى وامتصتها عواطفى مبتدعة صورا وأشباحا غريبة محزنة لانى عرفت فى لحظة أن مرتا المسكينة التى سمعت حكايتها من ذلك القروى هى الآن فى بيروت مريضة . تلك الصبية التى كانت بالامس مستأمنة بين أشجار الاودية هى اليوم فى المدينة تعانى مضض الفقر والاوجاع . تلك اليتيمة التى صرفت شبيبتها على أكف الطبيعة ترعى البقر فى الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدنية الفاسدة وصارت فريسة بين أظافر التعاسة والشقاء .

كنت أفكر وأتخيل هذه الاشياء والصبي ينظر الي كأنه

معها ، فاهتزت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء ، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد ان تستر ذاتها من امام الذكرى الهائلة بحلاوتها ، المرة بجمالها . وبعد سكينة ممزوجة بالتأوه ، ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين ، فرأيت عينين غائرتين محدقتين فى شىء غير منظور منتصب فى فضاء الغرفة ، وشفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، وعنقا تتردد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع . وبصوت يبثه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والالم قالت :

ـ جئت محسنا مشفقا ، فلتجزك السماء عنى ان كان الاحسان على الخطاة برا ، والشفقة على المرذولين صلاحا . ولكنى أطلب اليك أن تعود من حيث اتيت لان وقوفك فى هذا المكان يكسبك عارا ومذمة ، وحنانك على يثمر لك عيبا ومهانة . **ارجع قبل أن يراك احد فى هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار الخنازير ، وسر مسرعا ساترا وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق . ان الشفقة التى تملأ نفسك لا تعيد الى طهارتى ، ولا تمحو عيوبى ، ولا تزيل يد الموت القوية عن قلبى .** أنا منفية بحكم تعاستى وذنوبى الى هذه الاعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تدنيك من العيوب . أنا كالابرص الساكن بين القبور فلا تقترب منى لان المجتمع يحسبك دنسا ويقصيك عنه اذا فعلت . ارجع الآن ولا تذكر اسمى فى تلك الاودية المقدسة لان النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفا على قطيعه . واذا ذكرتنى ، فقل : قد ماتت مرتا البانية ، ولا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدى ابنها الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت متنهدة :

— سوف ينظر الناس الى ولدى بعين السخرية والاحتقار قائلين : هذا ثمرة الاثم ، هـذا ابن مرتا الزانية ، هـذا ابن العار ، هذا ابن الصدف . سوف يقولون عنه أكثر من ذلك لانهم عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون ان أمه قد طهرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفرت عن حياته بتعاستها وشقائها . سوف أموت وأتركه يتيما بين صبيان الازقة ، وحيدا فى هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله ان كان جبانا خاملا ، وتهيج دمه أن كان شجاعا عادلا . فان حفظته السماء وشب رجلا قويا ساعد السماء على الذى جنى عليه وعلى أمه ، وان مات وتملص من شـبكة السنين وجدنى مترقبة قدومه هناك حيث النور والراحة !

فقلت وقلبى يوحى الى : « لست كالابرص يا مرتا ، وأن سكنت بين القبور ، ولست دنسة وان وضعتك الحياة بين أيدى الدنسين . ان ادران الجسد لا تلامس النفس النقية ، والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحية . وما هـذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطى غلتها . ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر ، لان نمل الارض يحملها ، وطيور السماء تلتقطها ، فلا تدخل اهراء رب الحقل . أنت مظلومة يا مرتا ، وظالمك هو ابن القصور ذوالمال الكثير والنفس الصغيرة . **انت مظلومة ومحتقرة ، وخير للانسان أن يكون مظلوما من ان يكون ظالما ، واخلق به ان يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من أن يكون قويا ساحقا**

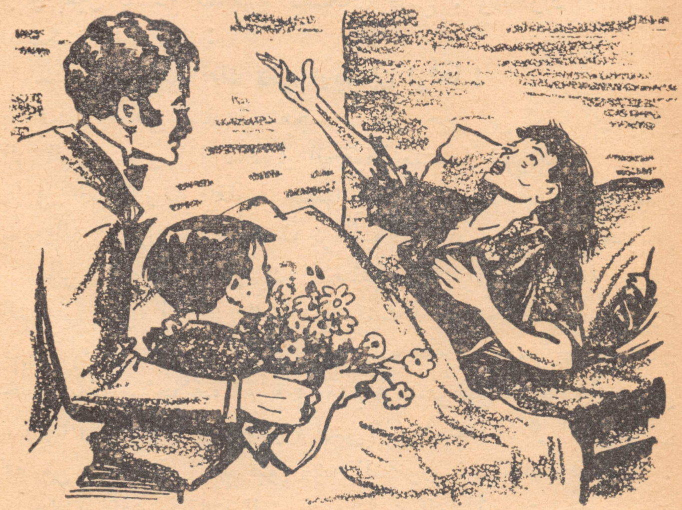
رأى بعين نفسه الطاهرة انسحاق قلبى . ولما اراد الانصراف امسكت بيده قائلا :

– سر بى الى أمك لانى اريد ان اراها !

فسار أمامى صامتا متعجبا . ومن حين الى آخر كان ينظر الى الوراء ليرى اذا كنت فى الحقيقة متتبعا خطواته .

فى تلك الازقة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ، بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الاشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة ، فى تلك المنعطفات الملتوية الى اليمين والى الشمال التواء الافاعى السوداء ، كنت أسير بخوف وتهيب وراء صبى له من حداثته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها من كان خبيرا بمكايد أجلاف القوم فى مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرة تاج السلاطين ، حتى اذا ما بلغنا اذيال الحى دخل الصبى بيتا حقيرا لم تبق منه السنون غير جانب متداع . فدخلت خلفه ودقات قلبى تتسارع كلما اقتربت حتى صرت فى وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الاثاث غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعته الصفراء ، وسرير حقير يدل على عوز مبرح وفقر مدقع ، منطرحة عليه امرأة نائمة قد حولت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمى به من مظالم العالم أو كأنها وجدت بين جدرانه قلبا ارق والين من قلوب البشر . ولما اقترب الصبى منها مناديا : « أماه ! .. » التفتت اليه فرأته يومىء نحوى . فتحركت اذ ذاك بين اللحف الرثة ، وبصوت موجع يلاحقه الم النفس والتنهدات المرة قالت :

– ماذا تريد أيها الرجل ؟ هل جئت لتبتاع حياتى الاخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك ؟ اذهب عني ، فالازقة مشحونة



بالنساء اللواتى يبعنك أجسادهن ونفوسهن بأبخس الاثمان . أما انا فلم يبق لى ما ابيعه غير فضلات انفاس متقطعة عما قريب يشتريها الموت براحة القبر !

فاقتربت من سريرها وقد آلمت كلماتها قلبى لانها مختصر حكايتها التعسة ، وقلت متمنيا لو كانت عواطفى تسيل مع الكلام :

— لا تخافى منى ، يا مرتا ، فأنا لم أجىء اليك كحيوان جائع ، بل كانسان متوجع . انا لبنانى عشت زمنا فى تلك الاودية والقرى القريبة من غابة الارز . لا تخافى منى يا مرتا !

سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة من اعماق نفس تتألم

بمقابضه زهور الحياة ، مشوها بهيوله محاسن العواطف .
النفس ، يا مرتا ، هى حلقة ذهبيـة مفروطة من سلسلة الالوهية . وقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة وتغير صورتها وتمحو جمال استدارتها ، لكنها لا تحيل ذهبها الى مادة اخرى ، بل تزيده لمعانا . ولكن ويل للهشيم اذ تأتى النار وتلتهمه وتجعله رمادا ، ثم تهب الرياح وتذروه على وجه الصحراء .. يا مرتا ، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبىء فى الهياكل البشرية . قد داستك تلك النعال بقساوة ، ولكنها لم تخف عطرك مع نواح الارامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة . **تعزى ، يا مرتا ، بكونك زهرة مسحوقة ولست قدما ساحقة ! »**

كنت أتكلم وهى مصغية وقد انارت التعزية وجهها المصفر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة قطع الغيوم . ثم أومأت الى ان أجلس الى جانب السرير . ففعلت مسائلا ملامحها المتكلمة عن مخبآت نفسها الحزينة . ملامح من عرف انه مائت . ملامح صبية فى ربيع العمر شعرت بوقع اقدام الموت حول فراشها البالى . ملامح امرأة متروكة كانت بالامس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوة ، فصارت اليوم مهزولة ترقب الانعتاق من قيود الحياة . وبعد سكينة مؤثرة جمعت فضلات قواها وقالت ودموعها تتكلم معها ونفسها تتصاعد مع أنفاسها :

ـ نعم ، انا مظلومة ، انا شهيدة الحيوان المختبىء فى الانسان . انا زهرة مسحوقة تحت الاقدام . **كنت جالسة**

على حافة ذلك الينبوع عندما مر راكبا .. وقد خاطبنى بلطف ورقة ، وقال لى انى جميلة وانه أحبنى فلا يتركنى ، وان البرية مملوءة وحشة والاودية هى مساكن الطيور وبنات آوى .. ثم الوى على وضمنى الى صدره وقبلنى ، وكنت لم أذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لانى كنت يتيمة متروكة . ثم أردفنى خلفه على ظهر الجواد وجاء بى الى بيت جميل منفرد . ثم أتى بالملابس الحريربة والعطور الزكية والمآكل اللذيذة والمشارب الطيبة .. فعل كل ذلك مبتسما ساترا بشاعة ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والاشارات المستحبة .. وبعد أن أشبع شهواته من جسدى وأثقل بالذل نفسى ، غادرنى تاركا فى احشائى شعلة حية ملتهبة تغذت من كبدى ونمت بسرعة ، ثم خرجت الى هذه الظلمة من بين دخان الاوجاع ومرارة العويل .. وهكذا قسمت حياتى شطرين : شطرا ضعيفا متألما ، وشطرا صغيرا يصرخ فى هدوء الليل طالبا الرجوع الى الفضاء الوسيع .. فى ذلك البيت المنفرد تركنى الظلوم ورضيعى نقاسى مضض الجوع والبرد والوحدة ، لا معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سمير سوى الخوف والهواجس ..

وعلم رفاقه بمكانى وعرفوا بعوزى وضعفى ، فجاء الواحد بعد الآخر وكل يبتغى ابتياع العرض بالمال ، واعطاء الخبز لقاء شرف الجسد .. آه ! كم قبضت على روحى بيدى لتقديمها للابدية ، ثم أفلتها لانها لم تكن لى وحدى ، فشريكى فيها كان ولدى الذى ابعدته السماء عنها الى هذه الحياة مثلما اقصتنى عن الحياة وألقتنى فى أعماق الهاوية .. والآن ، ها هى الساعة

قد دنت وعريسى الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودنى الى مضجعه الناعم !

* * *

وبعد سكينة عميقة تشابه مس الارواح المتطايرة ، رفعت عينيها المحجوبتين بظل المنية وقالت بهدوء : أيها العدل الخفى ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، انت ، انت السامع عويل نفسى المودعة ونداء قلبى المحطم ، منك وحدك أطلب ، واليك اتضرع ، فارحمنى وارع بيمناك ولدى ، وتسلم بيسراك روحى!

وخارت قواها ، وضعفت تنهداتها ، ونظرت الى ابنها نظرة حزن وحنو ، ثم أغمضت عينيها ببطء . وبصوت يكاد يكون سكتة قالت : ((**أبانا الذى فى السموات .. ليتقدس اسمك .. ليأت ملكوتك .. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الارض .. أغفر لنا ذنوبنا ..**))

وانقطع صوتها وبقيت شفتاها متحركتين هنيهة . وبوقوفهما همدت كل حركة فى جسدها . ثم اختلجت وتأوهت ، وابيض وجهها وفاضت روحها . وظلت عيناها محدقتين فيما لا يرى .

* * *

عندما جاء الفجر وضعت جثة مرتا البانية فى تابوت خشبى ، وحملت على كتفى فقيرين ، ودفنت فى حقل مهجور بعيد عن المدينة . وقد رفض الكهان الصلاة على بقاياها ، ولم يقبلوا أن ترتاح عظامها فى الجبانة حيث الصليب يخفر القبور . **ولم يشيعها الى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة .**

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الأعداد الماضية ، الكتب الآتية على التوالى :

◆ كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية ◆ طريق السعادة الزوجية ◆ مركب النقص ◆ حواء الجديدة ◆ كيف تقهر الخجل ◆ كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة ◆ فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة ◆ غزو السعادة ◆ التحليل النفسى ◆ الجنس الآخر ◆ عش حياة ايجابية ◆ أبواب الحب المغلقة ◆ فن الحب (لاوفيد) ◆ الانتصار على الخوف ◆ عش بحكمة تعش سليما ◆ كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة ◆ كيف تفسر أحلامك ◆ كن متفائلا ◆ تاريخ الغزل ◆ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة ◆ أتح لعقلك حياة جديدة ◆ دنيا الحب والسعادة ◆ حب وجنس وخيانة ◆ السلوك الجنسى عند الرجل ◆ السلوك الجنسى عند المرأة ◆ فى بلاد العراة ◆ أضواء على الجنس ◆ على أعتاب شباب الكهولة.

واليوم .. نقدم لك كتابا جديدا تقرأه فى الصفحات التالية


LOVE, COURTSHIP & MARRIAGE
by
Dr. DAVID MACE
٢٧ سؤالاً
وأجوبتها
فى الحب .. والزواج .. والأسرة
للأخصائى الانجليزى "دكتور دافيد ميس"
هل يحسن أن تتزوج الأرملة مرة أخرى؟
ماذا تفعل الزوجة إذا أحبت غير زوجها؟
سن اليأس عند المرأة، وهل يقتضى الامتناع عن الاتصال الجنسى؟
هل يغار الزوج أحيانا من طفله؟
كيف تعامل الزوجة حماتها؟
هل يمكن استرداد السعادة المتبادلة، بعد خيانة أحد الزوجين؟

مقدمة المحرر

صيد ثقافى .. فى كوبنهاجن

رب صدفة خير من جولة متعمدة وبحث طويل عن .. صيد ثقافى .. أعنى عن كتاب جديد !

وأنا فى رحلاتى – وأعترف – رحالة من نوع شاذ ، غير مألوف .. فالرحلات بالنسبة لى أكثر من استجمام متبلد ، أو سياحة مجردة ، أو حل وترحال ، أو حتى عمل دائب وانتاج .. لأنها مزيج من ذلك كله : مزيج من السياحة والثقافة .. من الفرار من العمل ، والانغماس فى العمل .. فقد أسافر لأستجم فترة وأنأى بنفسى وبأعصابى عن المتاعب ، بشقيها : متاعب رب العمل ، ومتاعب رب الأسرة – وما أفدح الجمع بين الشقين ، لو تعلم ! – فاذا بى أزج بنفسى ، كل حين ، فى مشاغل ومتاعب مفروض أن أكون فى غنى عنها وأنا فى بلد غريب أزوره لبضعة أيام – وربما لأول مرة – وأبغى أن ألم منه بأقصى ما أستطيع أن ألم ، فى هذه الفترة الوجيزة .

واليك الدليل ..

بعد أيام من وصولى الى عاصمة (الدنمرك) ،

قصدت الى مقهى (A B C) الذى يقع فى قلب المدينة ـ فى الشارع الرئيسى الموصل بين المخطة ودار البلدية ، وفى مواجهة باب حديقة الملاهى العالمية (تيفولى) ـ وهو مقهى أو مطعم تخدم فيه نفسك على طريقة الـ Self-Service ، فتتناول من على منضدة « صينية » تضع عليها أدوات المائدة التى تناسب طلبك ثم تمر على عدد من الطاهيات الواقفات أمام أقسامهن ، فتتناول من كل منهن ما ترغب فيه من ألوان الطعام أو الشراب ، أو القهوة أو الشاى .. الخ .. وتضع كل ذلك على صينيتك ، حتى تنتهى الى (الخزينة) فتدفع ثمن ما أخذت ، ثم تحمله الى أى مكان خال حول احدى المناضد المعدة لشخصين أو أربعة أشخاص ، فتجلس مع بقية شاغليها ، دون سابق معرفة طبعا . واذا أردت أن تكون فى مخيلتك صورة سريعة لـ « جو » المكان ، فيكفى أن تعلم ان ثلاثة أرباع رواده فتيات رائعات الجمال ، يأكلن أو يقرأن أو يثرثرن ، دون أن ينقطعن خلال ذلك عن التدخين . (وقلما تجد فى كوبنهاجن فتاة لا تدخن !)

.. فتيات بينهن الطالبة فى الجامعة ، والموظفة فى المتجر أو الشركة ، والمضيفة فى شركة الطيران .. الخ

وصادف أن جاءت جلستى ظهر ذلك اليوم فى مواجهة فتاة فرغت من تناول طعامها فأشعلت سيجارتها وانهمكت فى مطالعة « هذا » الكتاب !

وأثار عنوانه فضولى ، فدخلت معها فى حديث حول موضوعه ، وأهميته لفتاة مثلها تريد أن تتسلح لـ « معركة » الزواج !

وكان حديثا ممتعا ، مع قارئة مثقفة ذكية ، قبلت الفتاة فى نهايته أن تعيرنى الكتاب ليوم أو يومين ـ (بعد أن علمت منها أن طبعته قد نفدت من المكتبات) ـ كى أستخلص مادته للتلخيص ، مرجئا صقله الى ما بعد ..

وقضيت اليومين الأخيرين لى فى (كوبنهاجن) فى صحبة الكتاب .. بدلا من أن أقضيهما فى صحبة صاحبة الكتاب !

أرأيت كيف أبحث عن المتاعب ، أو تبحث عنى المتاعب ، ولو ذهبت الى القطب الشمالى ؟

.. بل اننى كررت نفس « الفعلة » فى بلاد أخرى ، ومناسبات ومراحل أخرى من أسفارى :

ففى ستوكهولم تركت مواكب الحياة الخلابة فى شارع (كونجز جاتان) وميدان (شتور بلان) ، لأقضى يومين سجينا فى دهاليز المكتبات وبدروماتها ،

أنقب عن كتاب بالانجليزية أو الفرنسية فيه نماذج من شعر « باسترناك » ونثره ، كى أنقل لك بعضا منها فى رسالتى اليك من هناك .. ثم توجت فعلتى بالانقطاع يوما آخر لكتابة صفحات من تلك الرسالة ، وترجمة بعض النماذج المذكورة ..

وفى (أوسلو) تركت أسراب الحمام تختال فى حديقة الميدان المواجه لدار البلدية ، ولذت بغرفتى كى أواصل الكتابة والترجمة ، حتى أطلت على من النافذة طلائع الفجر ، فتدثرت بمعطفى وخرجت فى برد ديسمبر القارس الى دار البريد ـ بعد أن نام خدم الفندق أنفسهم ! ـ لألقى بتلك الرسالة فى الصندوق قبل قيام الطائرة الى القاهرة بنحو ساعة واحدة !

وفى (مدريد) قطعت سهرة رأس السنة المرحة الصاخبة فى أوجها ، لأجلس اليك فى غرفتى ساعات طويلة ، أكتب فيها الرسالة التالية اليك .

وفى (الدار البيضاء) عدت من مشاهدة فيلم « بريجيت باردو » الرائع : « المرأة لعبتها الرجل » ـ المقتبس عن قصة « بيير لويس » المشهورة ـ لأقضى بقية الليلة فى صحبتك ، عبر الورق !

سمها هواية .. أو « مرضا » .. أو « تبديدا »

لوقت الغريب وراحته فى بلد تستطيع كل دقيقة فيه أن تقدم له ألوانا وأشتاتا من التجارب والمتع ..

أو سمها محاولة لاشباع جوع لا يشبع ، وطموح لا يقنع ، وظمأ لا يروى ، وشوق لا يطفأ .. الى دنيا الكتب والأدب ، وكل ما تفوح منه رائحة الحبر والورق !

ولكن الذى لا شك فيه انها « طبيعة » متأصلة فى ، لا تنفع فيها مقاومة .. ولا يجدى فرار !

طبيعة اقترنت بكيانى و دمى ، قرانا « كاثوليكيا » .. لا طلاق منه بحال !

أمرى الى الله .. فتعال نسلى همنا ونعزى أنفسنا بمطالعة هذا الكتاب الشائق عن الزواج والطلاق .. ثمرة صيدى الثقافى فى .. (كوبنهاجن) !

٢٧ سؤالا .. واجوبتها

فى الحب .. والزواج .. والأسرة

(١) هل من الحكمة للزوجين أن ينجبا أطفالا ، قبل أن يكونا قد دعما مركزهما ماليا ، بدرجة تدعو الى الاطمئنان ؟

• **ليس** هناك من يحب أن يرى أى زوجين من الشباب ينجبان أطفالا يكتب عليهم الحرمان من الحاجات الضرورية . على اننى ارى ان ثمة خطرا كبيرا – فى عصرنا الحالى – من

جراء الاسراف فى التأخر فى انجاب الأطفال .. وهذا الخطر يزداد فى حالة الزوجين اللذين يعمدان الى ارجاء النسل، دون أن يتخذا من هذا الارجاء فرصة للتوفير والاعداد ، اذ أنهما لن يلبثا ـ على هذا الوضع ـ أن يتعودا مستوى للمعيشة يعز عليهما الاحتفاظ به اذا ما انجبا اطفالا ، فيما بعد .

والتقليد الذى انتشر أخيرا وبدأ يسود ، هو ان يتم الزواج فى سن مبكرة نسبيا ، ثم يعمد الزوجان الى وضع خطة لتوفير مطالب الاسرة والاطفال ـ قبل انجابهم ـ والى ادخار مايكفل هذه المطالب .. وعندى ان هذا التقليد هو خير وسيلة لمواجهة أوضاع الحياة الراهنة .

على أنه ليس لاى زوجين يرزقان بطفل على غير توقع ، أن يعتبرا ان مقدم هذا الطفل نكبة لهما .

(٢) هل من الممكن للزوجين أن يسعدا ، اذا لم يكونا على دين واحد ؟

• **دلت** الاحصاءات على أن حوادث فشل الزوجية ـ عندما يكون الزوجان منتميين الى مذهبين متباينين من دين واحد ـ تصل الى ضعف مثيلاتها فى حالة ما اذا كان الزوجان ينتميان الى طائفة واحدة ..

ذلك لان كثيرا من متاعب الحياة الزوجية تتضاعف وتتضخم ، اذا ما كان الزوجان ينتميان الى مذهبين متباينين، أو الى دينين مختلفين . ولعل المتاعب التى تثور بشأن تربية الاطفال ، هى أخطر ما يعترض الحياة الزوجية فى هذه الحال . وتزداد مقدرة الزوجين على مواجهة هذه المتاعب والتغلب عليها ، اذا ما درسا

قبيل الزواج – وفى أمانة وصراحة – كافة ما قد يواجههما من مشكلات فى حياتهما المقبلة .

(٣) كم عدد الاطفال الذين ينبغى للزوجين السليمين ، المنسجمين ، أن يفكرا فى انجابهم ؟

• **قد** يكون من التدخل فى شؤون الزوجين ان يفرض عليهما انجاب عدد معين من الاطفال ، مهما يكن هذا العدد . على أنه لا بد من مراعاة بعض نقاط عامة ، منها ان الاسرات العديدة الافراد لم تعد مرغوبة فى عالم تهدده أزمة ازدياد السكان بدرجة تفوق موارده . **ومن ثم فان الاخصائيين يرون اليوم أن المعدل المعقول هو أن ينجب الزوجان ثلاثة أطفال فقط .. وقيل أن المعدل المثالى هو اربعة : ولدان وبنتان .**

على أن المهم فى الامر هو أن يكون كل طفل مرغوبا ، وأن يحظى من والديه بالحب الذى لا يشوبه تأفف أو تذمر ، وأن يكون فى وسع الوالدين أن يوفرا له خير فرص ممكنة فى الحياة .

(٤) هل تقر الاديان مسألة « تحديد النسل » ؟

• **لعل** تسميتها « تحديد الاسرة » أفضل واخف وقعا فى الاذن . ولست أعرف طائفة دينية تعارض تحديد الاسرة معارضة تامة ، ولكن « الكاثوليك » يرون أن من الخطأ التدخل فى الناحية الجنسية للزواج ، باستخدام اية اجهزة او مركبات كيمياوية تمنع الحمل .

على اننا نعرف ان فى وسع الزوجين ان ينظما علاقاتهما الجنسية بالنسبة لفترات الحيض الشهرية لدى الزوجة ،

الى درجة تهبط بنسبة احتمال حدوث حمل نتيجة هذه العلاقات .. والمهم في الامر — من الناحية الدينية — هو أنّ يكون الزوجان موقنين من انهما لا يلجآن الى ذلك تهربا من الواجب الذى يفرضه الدين — اذ أن كل الأديان تجمع على ان الغرض الاول للزواج هو التناسل — وانما تكون غايتهما من ذلك هى تنظيم أسرتهما ، ليكفلا للنسل خير نشأة وتربية ورعاية .

(٥) هل من الواجب أن يتلقى الشاب والفتاة — المقبلان على الزواج — معرفة خاصة ، فى فترة الخطبة ؟

• **أجل** .. ينبغى ان يتلقيا اكبر قسط ممكن من المعرفة التى تؤهلهما للحياة الزوجية . وقد أصبحت هناك كثير من الكتب التى وضعت لهذا الغرض على أسس علمية ، بوساطة اخصائيين مؤهلين .

والى جانب هذا ، يجب على كل من الخطيبين أن يعرف صاحبه على حقيقته وعلاته ، وأن يدرس شخصيته واخلاقه وعاداته . اذ أن التكيف مع ظروف الحياة الزوجية يغدو أسهل وأيسر اذا ما تحقق الانسجام بين شخصيتى الزوجين ، فى فترة الخطبة .

واذا شعر الخطيبان بحيرة ازاء أمر ما ، فجدير بهما ان يلجآ الى اخصائى نفسى ، أو الى خبير بالزواج .. كما يحسن بهما أن يستشيرا طبيبا فيما يتعلق بالمسائل التى تمت الى الطب .

وفى كثير من البلدان ، تعقد ندوات خاصة فى « مجالس

الارشاد » ـ او مراكز ارشاد المتزوجين ـ والكنائس وبعض الهيئات الاخرى . وفى هذه الندوات تناقش الموضوعات التى تمس الحياة الزوجية . بل ان بعض الهيئات والجامعات تنظم « فصولا » لتهيئة المقبلين على الزواج ، باعطائهم دراسات ذات برامج مفصلة .

(٦) ما الذى يحسن بالزوجين عمله اذا لم يرزقا أطفالا ؟

• **اذا** كانا قد واظبا على العلاقات الجنسية عاما على الاقل، وفى أوقاتها المناسبة ـ وهى التى تقع فى منتصف المدة بين فترات الحيض الشهرى ـ ولم يقدما على أية محاولة لمنع الحمل ، فجدير بالزوجة أن تستشير طبيبا . وقد تدعو الحاجة الى أن يحذو الزوج حذوها ، اذا تبين أن شيئا من موانع الحمل لم يكن من ناحيتها هى . فاذا لم تسفر المشورة عن تفسير ظاهر ، وجب أن يلجأ الزوجان الى طبيب أخصائى، يفحصهما فحصا دقيقا .

ولقد عرفت كثيرا من الزوجات والازواج الذين لم يرزقوا بأبناء ما ، فلم يؤثر هذا على سعادتهم أو ينتقص منها .. وليس من شك فى ان مجىء الاطفال يسبغ على الحياة الزوجية بركة ونعمة ، وأن عدم الانجاب يسبب فى معظم الاحيان شعورا حادا بخيبة الرجاء وبالاسى . وهذا الشعور يكون أكثر مرارة لدى الزوجة ـ فى العادة ـ منه لدى الزوج .

والواجب يقتضى اعتبار مثل هذه الحال مشكلة انسانية عامة ، لا بد من مواجهتها والتغلب عليها . ولكنها يجب أن لاتكون قط سببا فى اليأس والاسى . فان الحنين الى الاطفال

الايام ، ولم تعد القوانين متزمتة فى هذا الصدد ، فضلا عن أن نفقات الطلاق انخفضت كثيرا عن ذى قبل ، ولم يعد الرأى العام مسرفا فى استنكار الطلاق .

ولكن .. ترى أكان من المنتظر ان تزيد نسبة الطلاق فى عهد أجدادنا عنها الآن ، لو ان الظروف كانت ميسرة لهم للطلاق كما هى ميسرة لنا ؟ .. هذا ما لا يستطيع أحد أن يبت فيه برأى قاطع .

(٩) ما الذى يؤدى الى مولد التوائم ؟

• **التوائم** المتشابهون ، والتوائم غير المتشابهين ، يأتون بطريقتين مختلفتين نوجزهما هنا بأسلوب مبسط :

فعندما تتحد الخلية المنوية للذكر ببويضة الانثى ، تتألف منهما خلية جديدة ، يطلق عليها اسم « الخلية الام » . ولا تلبث هذه الخلية أن تنقسم الى اثنتين ، تسمى كل منهما « الخلية الابنة » . ثم تشرع كل من هاتين فى الانقسام بدورها ، حتى تصبح هناك ملايين من الخلايا ، تنمو وتتخذ شكل الجنين .

والذى يحدث أحيانا ، ان الخليتين الاوليين تصبحان ــ لاسباب لم نستطع بعد أن ندرك كنهها ــ خليتى « أم » وليستا خليتى « ابنة » ، فتنتج كل منهما جنينا ، ويكون الجنينان متشابهين .

أما التوائم غير المتشابهين ، فينشأون بطريقة أبسط .. فمع أن المرأة تفرز « بويضة » واحدة فى الشهر ، الا انها قد تفرز ــ فى بعض الاحيان ــ بويضات اضافية ، تتحد بالخلايا

ينبغى أن لا يصبح عاملا هداما للحياة الزوجية ، وانما يمكن استغلاله فى توثيق الصلة بين الزوج والزوجة ، بحيث يستطيع كل منهما أن يعزى الآخر ، بفضل الحب المتبادل بينهما ، وان يشتد تعلقا به ، فيعوضه عن الحنين الذى لم يتسن اشباعه .

(٧) هل تستوجب مرحلة انتقال المرأة الى طور العقم ـ وهى التى تسمى بسن اليأس ـ الامتناع عن الصلات الجنسية؟

• **لا** • فقد أثبت العلم خطأ الفكرة القديمة التى كانت تزعم ان المرأة لا تعود تستجيب للصلات الجنسية اذا ما توقفت عن الحيض الشهرى . **والواقع ان بعض الزوجات يكن خلال مرحلة الانتقال الى طور العقم أشد استجابة لهذه الصلات منهن قبلها !..** أما مايبدو كأنه عدم استجابة ، فيحدث فى حالة الزوجة التى لم تكن تجد كثيرا من المتعة أو الانفعال الجنسى فى الاتصالات الجنسية ، قبل هذه المرحلة ، ومن ثم فانها تنظر الى انتقالها الى « طور العقم » كوسيلة لتحريرها من هذه الاتصالات التى تضايقها . أما الزوجة التى تكون قد استمتعت بالناحية الجنسية للزواج ، فانها تحرص على استمرار هذه الاتصالات بعد انقطاع الحيض .

(٨) هل تفوق الزيجات غير الموفقة فى أيامنا هذه، نسبتها فى الأجيال السابقة ؟

• **الواقع** أن عدد الزيجات التى تنتهى الى انفصال أو طلاق ـ فى أيامنا هذه ـ يفوق كثيرا عددها فى الجيل السابق . ولكن هذا قد يرجع الى أن الطلاق قد أصبح سهلا فى هذه

المنوية القادمة من الذكر ، وتنمو كل منها على حدة الى اجنة لا يلبثون ان يولدوا معا . ونظرا لان كلا منهم قد نشأ من بويضة غير التى نشأ الآخر منها ، فان هذا النوع من التوائم لا يتميز بنواح للشبه سوى النواحى المألوفة بين الاخوة والاخوات عادة .

(١٠) ما هى خير سن للزواج ؟ .. وهل للفارق بين عمرى الزوجين أثر كبير على السعادة الزوجية ؟

• **عندما** تحب شخصا وتتعرف عليه التعرف الكافى ، الذى يؤكد لك أنه خير زوج لك ، يحق لك الزواج ، مهما تكن سنك وأرى أن مثل هذا الحكم فوق مستوى الذين لم يبلغوا سن العشرين ، فان الاحصاءات تبين أن نسبة فشل الزواج بين الذين لم يبلغوا هذه السن ، نسبة تدعو الى القلق . ومع ان من هذه الزيجات مايفلح ، فان من الافضل لمن لم يبلغ العشرين من العمر أن يتمهل عاما او اثنين ، لتقل احتمالات تورطه فى زواج غير موفق .

وليس هناك حد أعلى لسن الزواج ، فى الواقع ، وان كانت مرونة الشخصية تقل بازدياد العمر .. **وبوجه عام ، تعتبر السنوات التى بين العشرين والثلاثين هى خير سنى العمر وأنسبها للزواج** . على انه لايمكن وضع حدود ثابتة ، جامدة، بالنسبة للعمر وعلاقته بالزواج . والحقيقة ان العمر ليس بالعامل الحاسم ، وانما النضج هو الذى يجب التعويل عليه .. أى ان العبرة فى السعادة بين الزوجين ليست بسن كل منهما ، وانما بمدى نضجهما . ولقد عرفت زيجات كان

الفارق بين عمرى الزوجين يصل فيهـا الى عشرين سنة ، ولكنها مع ذلك كانت زيجات موفقة . وليس من شك فى أن ثمة صعابا تكتنف الزيجات التى من هـذا النوع . بل ان الرأى العام ، والانتقاد الذى يجرى على ألسنة الناس ، كثيرا ما يحرج الزوجين ويشيع فى حياتهما ارتباكا .. فضـلا عن ان الرجل الذى يتزوج امرأة تكبره كثيرا فى السن ، قد يحوم – فى بعض مراحل العمر – حول امرأة تصغرها سـنا ، وتفوقها جاذبية . كما أن المـرأة التى تتزوج من رجل مسن قد تحن أحيانا الى الشباب ، أو قد تتعرض لان تواجه مرحلة ترمل طويلة الاجل .

على أنه ما من زيجة تخلو من شىء من المخاطرة ، ولا بد لنا من أن نقاوم هذه المخاطرات بطريقة أو أخرى ، لتسير سفينة الحياة الزوجية بسلام . والفارق الكبير في العمر بى الزوجين خليق بأن يتضاءل اذا كانت بقية الظروف المحيطة بالحـياة الزوجية مواتية .

(١١) هـل من الواجب أن تفضى بجميـع أسرارك لمن تختاره زوجا ، قبل أن يتم الزواج ؟

• **أعتقد** أن هذا تصرف حكيم ، بوجه عام ، وان كان مؤلمـا فى بعض الاحيان . ذلك لان الزواج علاقة وثيقة ، ومعاشرة محكمة الروابط ، فمن الخير للطرفين ان يكونا على استعداد لان يكشف كل منهمـا حياته للآخر ، وان يتقبـل كل منهما صـاحبه على علاته ، اذا شـاء ان يعاشره .. **ومن ثم فمن حق كل من الطرفين أن يعرف ((علات)) الآخر ، قبل الاقدام**

على الارتباط . أما ان يبدأ أحدهما حياته الزوجية على اسس من الخداع ـ بأن يعرض النواحى «الطيبة» دون «السيئة» من نفسه ـ فأشبه ببيع سلعة عن طريق اقناع المشترى بمحاسنها دون عيوبها ! .. ذلك لان الطرف الآخر لن يلبث أن يعرف الحقائق الصحيحة ، طال الزمن أو قصر ، واذ ذاك سيشعر بأنه كان مخدوعا !

واذا راود أحد الطرفين شك ازاء أمر من الامور ، ولم يدر ما اذا كان من المستحسن أن يفضى به لصاحبه أو يمسكه ، فمن الخير أن يلجأ الى شخص ثالث ، يتوسم فيه الحكمة والامانة والحياد . ولهذا الطرف الثالث أن يقرر ما اذا كان من المستحسن الافضاء أو الصمت !

(١٢) هل يكون الاولاد الناجمون عن الزواج بين الاقارب ، من الشواذ او المصابين بعيوب او عاهات ؟

• **الجواب** عن هذا السؤال ـ بصيغته العامة ـ هو « لا » بالتأكيد . انما الصحيح هو ان الابناء الذين يولدون من زوجين من أبناء العمومة أو الخؤولة ، يكونون أكثر تعرضا لوراثة الامراض أو العيوب المتوارثة فى أسرة الزوجين ، من الابناء الذين يولدون من زوجين **لا** تربط بينهما اواصر القربى .. على أن هذا التفاوت **طفيف** ، ومرده الى أن الزوجين اللذين ينتميان الى أسرة واحدة ، قد يشتركان فى اعطاء اولادهما « جرعة مزدوجة » من العيوب أو الامراض المتوارثة فى الاسرة .

ومع ذلك ، فان الامر ذاته قد يحدث دون ان يكون الزوجان من الاقارب . **كأن يكون ثمة عيب ورثه الزوج عن اجداده ،**

وشاء القدر أن يكون موجودا لدى أجداد الزوجة وأن ترثه بدورها عنهم .. فيأخذه الاطفال عن الابوين معا !

ومن ناحية اخرى ، قد يرث أبناء العمومة أو الخؤولة عن أجدادهم المشتركين صفات ممتازة ، ومواهب ، يأخذها أبناؤهم عنهم .. وفى هذه الحالة يكون زواج الاقارب مستحسنا .

ومن ثم نرى أن الاخطار التى تعزى الى الزواج بين الاقارب، ليست بالفداحة التى يبالغ البعض فى تصويرها .. وانما يحسن بأى قريبين مقدمين على الزواج أن يركنا الى الفحص الطبى قبل الاقدام ، اذا كان فى أسرتهما أى ضعف أو عيب متوارث .

(١٣) هل لامرىء أن يتزوج ، وهو لا يحب الاطفال ؟

• **من** السهل على الزوج – أو الزوجة – أن يغير رأيه فى موضوع كهذا ، اذا ما وقع فى الحب ، واذا ما شرع يفكر فى الزواج بدافع من هذا الحب .

على أن البحوث تدل على أن الذين يتوقون الى انجاب أطفال – ولو لم يقدر لهم أن ينجبوا – يكونون اسعد فى زواجهم من أولئك الذين لا يرغبون فى الاطفال ، ولكنهم يرزقون بهم بعد الزواج .

ومن الغريب حقا ، أن البحوث الحديثة فى السعادة الزوجية تبين أنه ليس لانجاب الاطفال تأثير كبير فى هذه السعادة !

(١٤) اذا خطبت فتاة الى رجل مدمن على الشراب ، فهل لها أن تأمل فى أن تصلح حاله بعد الزواج ؟

• **بوسعي** أن أقول – بوجه عام – ان فرص الاصلاح ضعيفة جدا .. فان الرجل الراغب فى الزواج يكون على استعداد – عادة – لان يبذل قصارى جهده لارضاء خطيبته، ويحرص – قبل الزواج – على أن يبدى لها خير مسلك . ثم لا يلبث ان يتراخى فى اجتهاده وحرصه ، بعد الزواج ! .. لذلك يمكن القول انه اذا عز على الفتاة أن تصلح شأن خطيبها أيام الخطبة ، فانها ستكون أشد عجزا اذا ما أصبحا زوجين .. أما اذا أظهر الرجل رغبة فى الاستقامة – أثناء الخطبة – ففى وسع الفتاة أن تزوده بالمحفزات والمشجعات التى تساعده . ومن الممكن علاج مدمنى الخمر بعدة طرق ، لعل أضمنها وأيسرها – فى أيامنا هذه – هو العلاج النفسانى .

(١٥) هل هناك عادة أخرى – غير ادمان الخمر – تجعل من الرجل زوجا سيئا ؟

• **قد** يكون المسرفون فى المقامرة أزواجا غير موفقين ، اذ أنهم – كمدمني الخمر – يجدون فى هوايتهم ، أو بالاحرى فى غيهم ، متعة ولذة تفوقان كل ما يمكن أن يلقوه من أى شيء آخر فى الحياة . فاذا ما حرموا من هذه المتعة ، حطت عليهم الهموم ، ولا يستطيعون أن يواجهوا الحياة ما لم يسق اليهم الحظ أرباحا سريعة تخلع على الدنيا أضواء بهيجة فى أعينهم، وتعوضهم عن الميسر .

على أن هناك حقيقة قد لا تفطن اليها الفتاة ، لا سيما اذا كانت تحب خطيبها ، وتعيش فى أحلام هذا الحب . تلك هى أن المقامر اذا صادف نحسا أو حظا غير موات ، لا يكف عن

المقامرة .. بل انه كثيرا ما يزداد ايغالا فيها ، اعتقادا منه بأن الحظ لن يلبث أن يواتيه . **وهو ـ في ايغاله ـ لا يتورع عن تبديد أى مال ، ولو كان « مصروف البيت » !**

وعندما يكون الزوجان راغبين فى أن يعملا على بناء صرح زواج سليم مكين ، فان الشعور بالمغامرة كثيرا ما يغرى بالاستهانة بأية عقبات قد تبدو عسيرة التذليل . ولكن ما أبعد الفارق بين هذا وبين عدم الشعور بالمسئولية الذى كثيرا ما يخامر المقامر بطبعه ، ازاء المستقبل .

وهكذا نرى أن ثمة عيوبا فى الطباع والاخلاق ، يجب أن تلاحظها الفتاة ـ قبل ان تبت فى الزواج من رجل ما ـ وأن ترى فيها نذرا غير مستحبة .

(١٦) هل ينبغى للزوجين أن يخلطا أموالهما معا ؟

◆ فى الزواج الموفق الهانىء ، لا يفكر الطرفان فى أن هذا « لى » ، وذاك « لك » ، وانما هما ينظران الى كل شيء باعتباره ملكا لهما معا . على اننى أعرف ازواجا يعتبرون دخولهم أموالا خاصة بهم وحدهم ، كما أعرف زوجات يدخرن مبالغ فى السر ، ويبالغن فى تكتم أمرها ، ليستخدمنها فى أغراض خاصة .. **وفى رأيى ان أمثال هذه الحالات تعتبر ادلة على فشل فى فهم الزواج على انه شركة كاملة ، بكل ما فى هذا من مشاركة فى كل شيء .**

وضم أموال الزوج الى أموال الزوجة لايعنى بالضرورة وضعهما فى حساب واحد فى المصرف، اذ أن ثمة فوائد فى ايداع المدخرات منفصلة في بعض الاحيان ، أي أن يكون بعضها باسم

الزوج ، وبعضها باسم الزوجة . وانما المهم فى الامر هو ان يقبل كلاهما ـ كمبدأ ـ أن يكون جميع ما يملكان (فيما عدا المصروف الشخصى الذى يسمح به كل منهما للآخر) ملكا لهما معا ، فلا ينفق الا بالطرق التى يتفق رأيهما عليها .

(١٧) هل من المعقول أن يتشاجر الزوجان السعيدان ؟

• **من** الخطأ ان يتصور احد ان العلاقات الطيبة هى تلك التى تخلو من كل شقاق واختلاف . فان أى فردين أوتى كل منهما ارادة ، لابد أن تختلف اتجاهاتهما بين مناسبة وأخرى. ومثل هذين الفردين يجب أن يتعلما كيف يهيئان نفسيهما بحيث تتناسق رغباتهما فيزول الخلاف . والوسيلة الوحيدة لذلك ، هى أن يفسر كل منهما وجهات نظره ـ التى تخالف وجهات نظر صاحبه ـ وأن يبررها ، فاما اقنعه بها ، واما اقتنع بامكان التخلى عنها . وليتحاشيا ـ فى ذلك ـ الاحتداد والتعنت ، والانتهاء الى شجار وليس الى اتفاق !

وليس اختلاف وجهات النظر ـ فى حد ذاته ـ هو المهم ، وانما المهم حقا هو طريقة علاج الامر .. والشجار قد يستدعى كثيرا من الحدة فى التعبير عن الاراء ، ولكن هذه الحدة يجب أن لا تتطور الى فقدان السيطرة على النفس . ثم أن أى امر يتطور الى شجار يجب أن يناقش ـ فيما بعد ـ فى هدوء ، لتبين اسباب تطوره . فان تبادل قبلات الصلح لا يكفى ، وانما يجب ان يفهم الزوجان اسباب الشجار ، ليتخذا الخطوات التى تكفل عدم عودة الخلاف الى تعكير صفو علاقاتهما .

وبهذا الاسلوب يقل عدد مرات الشجار بين الزوجين عاما

بعد عام ، مما يدعم سعادتهما المشتركة .

(١٨) هل يجب أن يكون للزوجة مصروف خاص ؟

• **من** حق الزوجة أن يكون لها مبلغ معين من المال ، تتصرف فيه كيف شاءت ، بقدر ماتسمح ميزانية الاسرة . وفي الاسرات ذات التنظيم السليم ، يتلقى كل شخص مبلغا متفقا عليه من المال لمصروفه الخاص ، لا علاقة له البتة بالثياب ولا بالطعام والشراب ، وانما هو حق شخصي لا يحتاج الفرد الى أن يقدم حسابا لاحد عن الطريقة التى انفقه بها .. انه وسيلة لتوفير الشعور بالاستقلال ، وهو شعور لا غنى لاحد عنه .. لاسيما للزوجات .

(١٩) هل من المحتمل أن يغار الزوج من طفله ؟

• **مهما** يبلغ الرجل من السن والقوة ، فانه يحتاج ـ حين تضطرب نفسه أو تساوره الهموم ـ الى شيء من المواساة والترفيه والتسرية .. شأنه فى ذلك شأن المرأة ، وشأن الطفل .

ولقد كان الرجل ـ فى طفولته ـ يجرى الى أمه اذا حز به أمر ، فتسرى عنه وتخفف من أساه . فاذا ماتزوج ، فانه يطمع فى أن تقوم له زوجته بما كانت تقوم به أمه . والمرأة العاقلة الحكيمة تدرك أن الزوج يجب أن يعامل كما يعامل الطفل ، من آن الى آخر . فاذا ما رزقت ابنا ، ورأى الزوج أنها تغدق عليه الحنان والحب اللذين كان هو بحاجة اليهما ، فانه يشعر بالاهمال ، وبأن زوجته تغفل شأنه وتضن عليه



بالدفء العاطفى الذى يصبو اليه . أفلا يكون من الطبيعى عندئذ أن يرى فى ابنه غريما ناجحا ، وفق الى مالم يوفق هو اليه ، وحل محله من قلب الزوجة ؟ .. ونادرا مايعترف الزوج بذلك ، ويقر بأنه يغار من طفله – ولو فيما بينه وبين نفسه – ولكن التحليل الصحيح لمشاعره يبين أن ليس ثمة كلمة تصف هذه المشاعر ،سوى .. « الغيرة » !

(٢٠) ما مدى أهمية اتفاق الزوجين بشأن تربية أبنائهما ؟

• **ان** اتفاقهما أمر لابد منه ، اذا شاءا أن ينشأ أولادهما سعداء ، مستقرى النفوس . فان البيت بالنسبة للطفل أشبه بدنيا خاصة به . وهو يشعر بالامن والطمأنينة اذا ماعرف أن ثمة أشياء يجوز له أن بفعلها ، وان ثمة أشياء أخرى لا يجوز

له أن يفعلها ، اذ أن ذلك يمكنه من ان يعرف موقفه بالنسبة للسلطات التى تسيطر على حياته .

فاذا لم تتفق هذه السلطات فيما بينها ، فكيف للطفل أن يعرف ما له وما عليه ؟ .. اذا أباح الاب ما تحرمه الام ، أو ابتسمت الام — فى تساهل — فى المواقف التى يضرب الاب ابنه من أجلها ، فان الطفل لا يتمالك أن يشعر بأنه ليست ثمة قواعد وقوانين تحكم تصرفاته . وهو فى هذه الحال يرى أن من الطريف أن يثير الخلاف بين أبيه وأمه ، ليستغله لمصلحته !.. **ولدى الاطفال استعداد طبيعى لان يحذقوا هذا ، فلا يلبثون — فى النهاية — أن يفقدوا احترامهم للأب والام معا** ، اذ يشعرون بأنهم يعيشون فى دنيا غير مستقرة الاوضاع .. دنيا تجعلهم دائما فى قلق واضطراب . وهذا هو ما يحملهم على اساءة السلوك ، وعلى أن يغدوا مصدر متاعب لوالديهم .

ومن هنا تنشأ ضرورة توحيد الجبهة .. فان اتفاق الابوين — فيما يتعلق بتربية أبنائهما — ينطوى على خير لهما وللأطفال معا .

(٢١) لماذا لا تكترث بعض الزوجات بالحياة الزوجية ؟

• **من المؤكد** أن حرارة العواطف تختلف من امرأة الى أخرى ، نتيجة لاختلاف جوهرى فى فطرة النساء . وهو اختلاف ليس بالقليل ، كما تدل الحقائق العلمية .

على أن ثمة زوجات لا يشعرن باستجابة لدواعى الود والمراودات الجنسية التى تتضمنها الحياة الزوجية . ومثل هذه الزوجة تكون قد أوتيت — عادة — خوفا ، أو حياء ، او

شعورا بالاثم تغلغل فى أعماق نفسها ، واقترن فى ذهنها بالجنس اقترانا وثيقا .. **وهى قد لا تفطن الى شىء من هذه المشاعر ، أو هى قد تفطن اليها و تعرفها ، ولكنها تعجز عن التخلص منها .**

ومن الخير لمثل هذه الزوجة أن تفاتح فى الامر اخصائيا فى شؤون الزواج ، أو طبيبا نفسيا . فاذا كانت تجفل من هذا ، فان اجفالها - فى حد ذاته - دليل على أنها فى حاجة الى معونة أحد الاخصائيين ، فجدير بها أن تقاوم هذا الاجفال .

ومع أن هذه الاستشارة قد لا تؤدى الى حل مشكلتها حلا تاما ، الا أن الحديث عنها مع اخصائى يساعد - فى أغلب الاحيان - على تخفيف متاعبها .

(٢٢) ما الذى تستطيع الزوجة أن تفعله ، اذا أبى زوجها أن يتحدث معها بشأن مشكلة من المشكلات ؟

• **يجدر** بمثل هذه الزوجة أن تدرك أن ثمة فارقا اساسيا بين الرجال والنساء ، فى الافصاح عن المشاعر . فعندما يظهر التوتر فى جو الحياة الزوجية ، تود الزوجة أن تفضفض عن نفسها بالحديث عما تعانى . ولكن كثيرا من الرجال يقابلون المشكلات بشعور شديد من الالم والتأثر ، لا يميلون معه الى الكلام ، بل يلوذون بالصمت . وهذا يضايق المرأة التى تحب أن تعرف رأى زوجها وشعوره ، فتسأله فى حدة ، فلا تزيده الحدة الا انطواء وكتمانا لالمه .

ومن غير المجدى أن تمضى الزوجة فى الالحاح ، ما دام الزوج غير راغب فى الافضاء بما فى نفسه . لذلك يحسن بها أن تنتظر الي وقت يكون فيه قد تخلص من بعض ما به .. **فاذا سعت**

اليه بعد ذلك فى تلطف ومحبة ، وبينت له ـ فى لباقة ـ مدى شقائها بصمته ، وسألته أن ينبئها بما ينبغى أن تفعله لارضائه ، فانه لا يلبث ان يستجيب لها .

وخليق بالنساء أن يفهمن أن الرجال خجولون فيما يتعلق بمشاعرهم الشخصية ، فهم بحاجة الى كثير من التشجيع قبل أن يفتحوا قلوبهم ، أو يفضوا لاحد ـ ولو لزوجاتهم ـ بما يهمهم .

(٢٣) هل من الحكمة أن تتزوج الارملة مرة أخرى ؟

• **ليس** ثمة وجه للمعارضة فى ذلك ، من ناحية المبدأ . فان المرأة التى كانت سعيدة فى زواجها ، قد تعانى كثيرا من اللوعة من جراء الوحدة اذا ما مات زوجها وقدر عليها أن تبقى بقية العمر وحيدة .

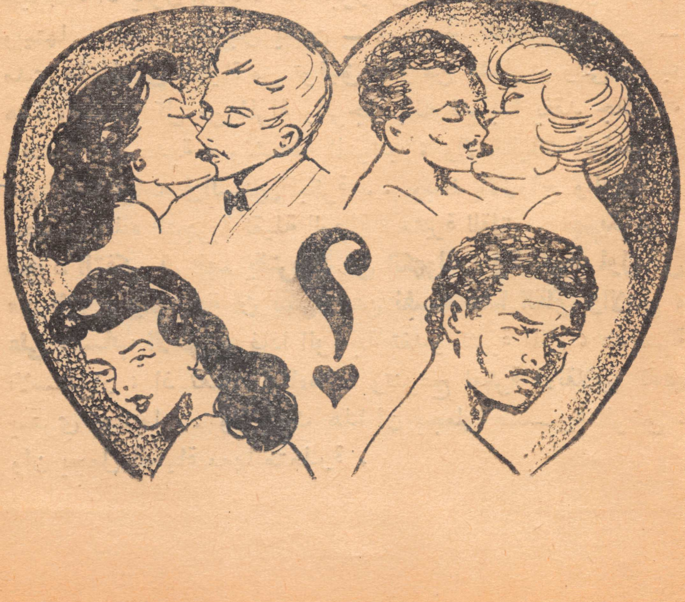
على أنه ليس من الحكمة أن يتم مثل هذا الزواج بسرعة ، بعد الترمل . اذ لا بد للزوجة ـ بعد الصدمة والحزن ـ من عام على الاقل ، لتعيد عواطفها الى الهدوء الطبيعى . فضلا عن أنها بحاجة الى وقت تدرس فيه الرجل الجديد قبل أن تقبله زوجا . فمن الواجب أن تتأكد من ذلك كما لو كانت فتاة تتزوج للمرة الاولى ! .. **واذا كان لاحد الطرفين ـ أو لهما معا ـ أطفال، فان التهيؤ للزواج الثانى يكون أشد صعوبة .** ولابد للارملة من أن تكون مستعدة لهذا الاحتمال ، ومن أن تكون قادرة على مواجهة الموقف بفهم وادراك .

فاذا روعيت هذه الامور ، كان من المحتمل أن توفق الارملة فى زواجها الثانى .

(٢٤) ما الذى تستطيع الزوجة أن تفعله ، اذا وقعت فى حب رجل آخر غير زوجها ؟

• **خليق** بها أن تدرك — قبل كل شيء — ان هذا ليس حدثا فريدا ، أو شاذا . ولكن عليها أن تدرك كذلك انه ليس صحيحا ما يزعمه بعض الناس من أن الحب قدر مكتوب لا مهرب منه ، ولا سبيل الى مقاومته !

وقد يكون من العسير مقاومة الجاذبية والفتنة ، ولكن المرأة الحازمة ، ذات الارادة القوية ، تستطيع أن تتشبث بالوفاء لزوجها . **اذ أن المشكلة الحقيقية تنشأ عن استسلام المرأة للصداقة مع الرجل الآخر ، فتدع تيار هذه الصداقة الخطرة يجرفها ، وهى تعلل نفسها بأنها لن تدع الامور تمضى بها بعيدا ،**



وانها لن تلبث ان تتمالك نفسها فى الوقت المناسب .. ذلك لان اتخاذ القرار الحاسم يزداد صعوبة كلما اسرفت فى ارجائه.

واذا كان الكفاح أفدح من أن تطيقه ، فان من الحكمة دائما أن تفضى بالامر الى أحد والديها ، أو الى قريب يكون جديرا بالثقة ، او الى صديق حكيم ، أو الى خبير بشؤون الزواج .

(٢٥) ما الذى يقصد ب ((خطر العقد الخامس من العمر)) ؟

• **ان** الفترة من سن الاربعين الى سن الخمسين هى الفترة التى يحتاج فيها معظم الناس الى اعادة تنظيم حياتهم ومشاعرهم . فالمرأة تتعرض — فى هذه الفترة — الى تغير فى حياتها ، اذ يكون أولادها قد كبروا وبدأوا يخرجون من حياتها وبيتها . كما أن الرجل يتبين — فى هذا العقد من العمر — مدى ما بلغه فى الحياة من توفيق ، أو من فشل . والى جانب هذا ، يشعر كل من المرأة والرجل بأنه قد بدأ يفقد جاذبيته وفتنته الجسدية ، ونشاطه المتوثب ، والامكانيات الواسعة التى كانت امامه فى السنين المبكرة .. وبعض الازواج والزوجات يجد أن هذه التجربة ثقيلة الوطأة ، مثيرة للقلق . **فهم يكرهون مجرد التفكير فى أنهم يقتربون من الكهولة ، وقد يحاول كل من الزوج والزوجة أن يسرى عن نفسه هذا القلق والاسى ، على حساب الآخر** . فاذا الزوجة تغدو كثيرة الملل ، عديمة الاستقرار ، اذ تفتقد أبناءها ، وتنزعج لفكرة الانقلاب الذى يعترى حياتها .. ولا يلبث هذا أن يجعلها عسيرة الرضى ، وان يجعل الحياة معها متعذرة .

وقد يضيق الزوج بهذا المسلك المصبى من زوجته ، ويتوق الى أن يجدد شبابه .. **فاذا صادف امرأة أصغر سنا من زوجته ، وأبرع منها فى مداهنته ومداعبته ، فانه قد يميل اليها !** ومن الواضح أن مثل هذه الحال يعتبر « أزمة » تحل بالحياة الزوجية . وفى وسع الزوجين أن يكسبا نصف المعركة ، اذا هما تبينا الاخطار التى تجرجرها سن الاربعين فى ذيولها ، فيتخذان خطوات عملية جدية لتلافيها .

(٢٦) هل فى وسع أى زوجين أن يستعيدا السعادة الحقة ، الصادقة ، بعد أن يكون الزوج قد خان زوجته؟

• **ليس** بوسعى أن أؤمن بأن عدم الوفاء معول لا محيد عن ان يهدم الحياة الزوجية تماما . بل اننى أعرف حالات استطاع فيها الزوجان أن يستردا هناءهما كاملا ، على مر الزمن .

وليست حالات عدم الوفاء كلها سواء .. فعندما ينبذ الزوج زوجته ، ويهجرها فى استهانة وعدم مبالاة ، ليرتمى فى أحضان امرأة اخرى ، يكون من العسير أن يرجو المرء للحياة الزوجية استئنافا .. بيد اننى عرفت رجالا كانت خياناتهم نتيجة نزوة طارئة ، ورجالا انساقوا الى الغواية نتيجة الشعور بالخيبة فى حياتهم الزوجية ، ونتيجة توتر عاطفى . ومثل هؤلاء ، يجب أن يحملوا نصيبهم من اللوم .

أما فى الحالات التى تكون فيها الخيانة نتيجة اخطاء من الزوجين معا ، ثم يعقبها الندم والتوبة ، فان الصفح ، والنية الطيبة ، والمعونة المستمدة من اخصائى فى شؤون الزواج ، او فى علم النفس ، كفيلة بأن تمحو الخيانة ، وأن تصلح ما بين

الزوجين ، وتعيد ما انقطع من علاقاتهما .

(٢٧) هل فى وسع الشخص العادى أن يعيش العمر كله .. دون أن يتزوج ؟

• **أجل** .. ولكنى أحب ان أضيف الى الجواب نقطة أو أثنتين : ان الزواج ـ بالنسبة لمعظم الناس ـ ارضاء لحاجة من أعمق وأصدق الحاجات المتأصلة فى النفس البشرية .. الحاجة الى الحب والتعاطف ، والى الزمالة والمعاشرة ، والى تحقيق رسالة الحياة ، وانجاب النسل . **على أن بين الناس من لا تكون هذه الحاجة هى أهم ما يصبون اليه ، بل تكون لهم حاجات أخرى وأهداف خاصة فى الحياة ..** كما ان هناك اناسا لا تتاح لهم فرصة الزواج ، دون أن يكون لهم فى ذلك ذنب . وانى لاعرف نساء لم تتح لهن الفرصة ، فرضين بنصيبهن ، واستمتعن ـ مع ذلك ـ بحياة طيبة ، هانئة .
